



السد العالى فوق النوبة

بقلم لسلى جرينر

ترجمة حسين الحوت
مراجعة حمدى حافظ

HIGH DAM OVER NUBIA

Leslie Greener



السد العالى

فوق النوبة

بقلم : لسلى جرينر

إهداء

أهدى مؤلفي هذا الى أصدقائي
المصريين وسدهم العالي
متمنيا لهم الصحة والرخاء والعيش الرغيد

المؤلف

تقـــديم

تلقى الدكتور « لسلى جرينر » ـ مؤلف هذا الكتاب ـ تعليمه فى كلية « ســاند هيرست » العســكرية ، والتحق ، بعـد تخـرجه ، بالجيش الهندى ، وبعد فترة وجيزة ، اعتزل الخدمة ، وقام برحلات طويلة فى استراليا ونيوزيلندة ، ثم عاد الى فرنســا لدراسة الفنون ، ومنها الى مصر حيث اشتغل بالتدريس ، اذ اجتذبته دراســة الآثار المصرية ، فانضم الى بعثة جامعة شيكاغو ، التى كانت تعمل فى المنطقة الاثرية بمدينة الاقصر ، وقد أسندت اليه الجامعة بعد الحرب العالمية الثانية ، مهمة استئناف بحوثه الاثرية فى مصر ، وهو يمضى شتاء كل عام فى مصر باحثا ومنقبا ومؤلفا عن الآثار المصرية .

و « جرينر » يعنى عناية خاصة بصيانة الآثار المصرية ، ومن أجل ذلك ذهب الى النوبة عضوا فى البعثة التى أرسلها المعهد الســويسرى بالقاهرة ، ومعهد الدراسات الشرقية فى شيكاغو لاتمام فحص معبـد رمسيس الثانى فى « بيت الوالى » بالنوبة ، واعداد تقرير عنه .

وقد انتهز « جرينر » فرصــة وجـوده فى بلاد النوبة ، فدرس المنطقة دراسة تاريخيــة منذ عهـد الاسرات القـديمة ، من فرعونية وكوشية ، حتى الوقت الحاضر ، وهى فترة تمتد أربعة آلاف ســنة عبر التاريخ .

وقد تكلم « جرينر » عن بلاد النوبة وآثارها التاريخية ، ثم قال: ان آثار النوبة تراث دولى ، يجب أن يتضــامن العــالم المتمــدين فى المحافظة عليه . وان ضياع تلك الـكنوز الاثرية التى تحتويها أرض النوبة مأساة كبيرة للحضارة الانسانية .

يبدأ « جرينر » باهداء مؤلفه الى أصدقائه المصريين وســدهم العالى متمنيا لهــم الحياة الطيبة والرخاء والعــافية . ثم يقسم تاريخ النوبة الى فترتين : ففى الفترة الاولى يتحدث عن مشاهداته فى المنطقة وعن مشروع السد العالى ، وعن الحاجة الماسة التى دفعت بالرئيس جمال عبد الناصر لاقامة هذا السد .

وفى الفترة الاخرى : يتحدث عن تاريخ النوبة القديم منذ عهـد الفراعنة والكوشيين . ثم الاغريق ، والرومان والعرب ، والممــاليك ، والترك ، حتى عصر محمد على .

يقول المؤلف : ان مصر كانت تضيق بسكانها حينما كانوا عشرة ملايين فقط ، وان كان تعسف الترك واستغلال الاستعمار عنصرا قويا

فى تبديد ثروة البلاد ، وفى تعداد سنة ١٩٤٧ ارتفع عـدد سكان مصر الى ١٩ مليونا ، وفى سـنة ١٩٦٠ أصبحوا أكثر من ٢٥ مليونا ، وعلى هـذا المعدل فسوف يكون سكان مصر عام ١٩٧٠ ، أكثر من ، ثلاثين مليونا . يعيشون فى هـذا الوادى الضيق الذى تحده الصحراء من الجانبين .

وليس لهـذا التضخم من حل الا أحـد امرين : فاما أن يهبط تعداد السكان الى خمسة عشر مليونا ، واما التحكم فى المائة والثلاثين مليارا من الامتار المكعبة ، من مياه الفيضـان التى تذهب سـدى الى البحر . وبذلك يمكن زيادة الارض الزراعية ، وانشاء الصناعات التى نواجه حاجة السكان ، وهكذا كانت هناك ضرورة ملحة لانشاء السـد العالى . واذا كان هذا السد يغير معالم النوبة ، ويخفى تحت طبقات الماء كثيرا من بقايا جهود الانسان عبر التـاريخ من مقـابر ، ومدن . وقلاع ، ومعابد وثنية ، وكنائس مسيحية ، ومساجد اسلامية ـ فانه سوف يجلب الرخاء لاهل النوبة الفقراء ، ويرفع مستوى معيشـتهم ويحول دون هجرتهم الى القاهرة ومدن الدلتا سعيا وراء الرزق .

ويبين « جرينر » عظمة السد العالى فيقول : ان اضخم سـدود العالم المنشأة على الصخر مثل السد العالى ، هى سد « ديفز » على نهر كلورادو . وسد « مايبور » فى اليابان . وسد « سير بونسو » فى فرنسا . ولـكن اذا أفرغت المياه التى تحجزها السـدود الثـلاثة فى البحيرة التى يكونها السد العالى ، فانها لن تملأ الا نصفها ، كمـا أن القوى الكهربية التى تولدها السدود الثلاثة مجتمعة لن تزيد على ثلث انتاج السد العالى من الطاقة الكهربية .

ويعلق على مشروع السد قائلا : انه اذا كانت بعض الدول الكبرى توجه اللوم الى الرئيس ناصر ، لاتفاقه مع روسـيا على بناء السـد ، فالواجب أن تلوم نفسـها أولا ، لان السـد لم يـكن نزوة من نزوات عبد الناصر ، كما تخيلته هذه الدول ، وانما هو ضرورة حيوية لمصر .

ويثنى المؤلف على الجهود التى بذلت لانقاذ آثار النوبة، وخاصة تلك التى بذلتها جامعة كولومبيا ، اذ ارسلت بعثـة من خيرة علمـاء الآثار ، للقيام بدراسة تاريخية لمنطقة النوبة كما ان علمـاء الآثار من بلاد مختلفة . تطوعوا للمساهمة فى هذا العمل الحضارى العظيم .

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى الحديث عن تاريخ النوبة فيقول : انها بلاد « كوش » القديمة . ويرجح أن بعض جماعات من الكوشيين رحلت شمالا مع النيل حتى بلغت صعيد مصر . وان الفراعنة ليسوا الا سلالة تلك الجماعات الكوشية المهاجرة الى الشمال ، وقد عثر على صخرة من صخور شلال اسوان عليها نقوش تظهر الفرعون «سنوسرت» « مع الآلهة » « انوكيت » الهة النوبة . وبجانبها « ساتيت » الهـة « الفانتين »

كذلك عثر عنـد « سمنه » على عمود حجـرى ذى اهمية اثرية اكبر . لانه يبين أقصى امتداد للامبراطورية المصرية جنوبا . وهنـاك

اوراق من البردى ترسم السياسة التى تتبع نحو اهالى الجنوب .

وعثر فى « الرمسيوم » على مجموعة من اوراق البردى ، وهى عدة رسائل صادرة من قلعة « سمنه » المصرية فى اقصى الحدود الجنوبية لاملاك « امنمحعت » فرعون مصر ، وموجهة الى « طيبة » عاصمة مصر حينذاك .

وحينما غزا الهكسوس مصر ، ظلت فترة فى ظلام تاريخى دامس ولكن بعض المؤرخين يؤكدون أن هؤلاء الهكسوس وصلوا بتجارتهم حتى بلاد النوبة .

ويعلق المؤلف على هذا الراى قائلا : انه بعيد التصديق ، لان الهكسوس اغاروا على مصر من آسيا عبر شبه جزيرة سينا ، وقد ظل امراء طيبة المصريون يناصبونهم العداء طوال حكمهم لمصر ، وليس من المعقول أن يصل نفوذ الهكسوس الى النوبة ، اذ يعترض سبيلهم امراء طيبة .

ويقول المؤلف ، نقلا عن العالم الكبير « برستد » : أن تحتمس الاول قام بحملة لتأديب الكوشيين وصل فيها جنوبا حتى مدينة « مروى » على النيل فى منحنى النوبة ، وكان غرضه من حملته ان يضع حدا نهائيا لغارة أهل الجنوب على مصر .

وينتقل الى عصر الملكة « حتشبسوت » ، والفرعون « تحتمس الثالث » . فيقول : انهما أقاما حصنا عند « قمة » وأهدياه الى الاله « خنوم » والفرعون « سنوسرت » الثالث الذى رفع الى صفوف الالهة

وقد ازدهرت التجارة بين مصر والنوبة فى عهد « امنمحتب الثالث » وابنه « امنمحتب » الرابع أو « أخناتون » ، وزوجته « نفرتيتى » ، وهو الفرعون الذى دعا الى التوحيد وبنى معبدا للشمس (روح آتون) فى النوبة ، ولكن عبادة « آتون » لم تثبت جذورها فى بلاد النوبة ، وظلت عبادة آمون سائدة طوال الف عام بعد ذلك التاريخ .

وبلغ سلطان الفراعنة فى النوبة أقصى حد فى عهد « رمسيس الثانى » ، وهناك معبد أبو سنبل خير شاهد على ما أقامه الفراعنة من معابد ، فيما بين أسوان وبلاد كوش .

ويحدثنا المؤلف عن « توشكا » وما فيها من مقابر اثرية تمثل مختلف العصور التاريخية . وقد اكتشف العالم الاثرى النمساوى « يونكر » عددا من هذه المقابر، وعثر بينها على مقبرة «ولد النجومى» حينما كان يقود حملته عام ١٨٨٩ قبل الميلاد لغزو مصر .

ويقول المؤلف : ان النوبيين استطاعوا حكم مصر فى فترة من فترات ضعفها . وان أول من سيطر على مصر العليا هو « حرحور » الذى قدم من النوبة ، بحجة قمع اضطرابات داخلية فى طيبة ، ومن اهم ملوك كوش ، الذين حكموا مصر « طهراقة » الذى توج فى طيبة ملكا على مصر وكوش ، عام ٦٨٩ قبل الميلاد .

وقد غزا مصر فى عهد « طهراقة » الملك « أسـار حارون » ملك آشور ، فوصل الى مدينة منف ودفع « طهراقة » نحوالجنوب . وجاء بعده ابنه آشور بانيبال ، فطرد طهراقه من مصر الى بلاد كوش .

وقد حاول « تانوت آمون » خليفة طهـــراقة غزو مصر ، ولـكن آشور بانيبال هزمه ورده الى « نباتا » ونصب « ابسـماتيك الاول » ملكا على مصر العليا ومصر السفلى . وبهزيمة تانوت آمون انتهى حكم الكوشيين لمصر .

وفى عهد البطالسة أمكن بناء كثير من المعابد ، ومن أجملها معبد « فيلة » وبلغت حدود مصر الشلال الثانى . وهاجرت جماعات من المصريين الى النوبة . واستوطنت النوبة عند « مروى » .

ويحدثنا المؤلف بعـد ذلك عن حـكم الرومان لمصر ، وكيف انهم وجدوا خصما عنيدا فى مملكة كوش وعاصمتها « مروى » فاضـطروا الى عقد معاهدة مع الكوشيين .

وينتقل المؤلف الى العهد الاسلامى فيقول : ان المسـلمين غزوا النوبة فى عهد عمرو بن العاص ، وبلغوا دنقلة العجوز .

وهنا يتحدث عما أظهره المسلمون من تسامح دينى مع ملكالنوبة المسيحى وشعبه ، فلم يتعرضوا لكنائسهم بسوء ، وكيف اباحوا لهم الانتقال الى مصر للتجارة . ولم يحاولوا ارغامهم على اعتناق الاسلام، وجاء فى عهد عمرو بن العاص للنوبة مايلى : هـذه هى شروطنا ، فان خالفتموها فأنتم البادئون بالعدوان ، والله يحكم بيننا وبينكم ، وهـو خير الحاكمين .

ويروى المؤلف بعض القصص التى تثبت ان الغـزاة العـرب لم يضمروا اية عداوة للمسيحية ولا للمسيحيين ، ويورد نقلا عن المؤرخ أبى صالح ، أن الملك « سليمان » ، ملك النوبة المسيحى ، هجـر الملك ولجأ الى صومعة للعبادة فى عهد الخليفة المنتصر بالله ، ولما سمع وزير المنتصر بخبره زاره واحاطه بـكل مظاهر التجلة والاحترام ، واقنعـه بالقدوم الى القاهرة . وهناك أعدت له دار خاصة وقامت الدولة على خدمته حتى وافته المنية ، ودفن فى دير سان جورج .

ويروى قصة اخرى .. وهى أن الملك « زخاريا » ملك النـوبة تأخر بضع سنوات عن دفع الجزية ، وكان ذلك فى عهد الخليفة المأمون، ولما طالبته دولة الخـلافة بدفع المتأخرات أرسـل ابنه « جورج» الى بغداد معتذرا للخليفة بعجزه عن دفع المال المطلوب . فتـأثر الخليفـة تأثرا عميقا ونزل عن طلب المال ، وأمر الوالى فى مصر بأن يقدم للملك « زخاريا » ما يحتاج اليه من عون . وأن تخصص احدى دور الوالى لسكنى الامير « جورج » حتى يتم تعليمه ويعود الى بلاده .

وفى العهد التركى اقيمت القلاع فى أسوان وابريم ، ورابط فيها جند من « البشـناق » فاندمجوا مع الاهالى . ويقال : ان سـلالتهم لا تزال فى النوبة حتى اليوم . أما فى عهد محمـد على فقد اجتـاحت عساكره النوبة فى طريقها الى السـودان ، ومنـذ ذلك الوقت اختفت النوبة فى زوايا التاريخ .

كلمة المؤلف

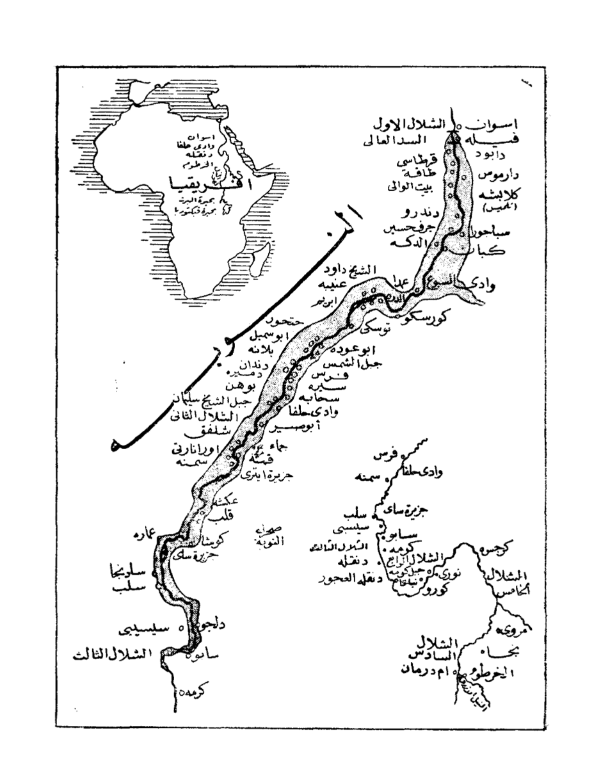
كان من المصادفات الطيبة أن ذهبت الى النوبة كعضو فى البعثة المشتركة ، التى أرسلها معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو والمعهد السويسرى بالقاهرة ، للقيام بدراسة مستوفاة لمعبد رمسيس الثانى فى « بيت الوالى » واعداد تقرير عن هذه الدراسة ، على أنى انتهزت الفرصة ودرست أيضا منطقة بلاد النوبة وسكانها الحاليين ، وامتدت دراستى فشملت تاريخها منذ أربعة آلاف سنة حتى وقتنا الحاضر .

اننى أعتبر النوبة تراثا دوليا يجب علينا جميعا المحافظة عليه .. اذ أن ضياع كنوزها الاثرية مأساة حضارية للعالم أجمع .

وانى لاشكر الظروف التى أتاحت لى المساهمة بنصيب متواضع فى العمل على حفظ كنوز الحضارة الانسانية .

الجزء الأول

النوبة في عهدها الحاضر



اسوان
الشلال الاول
فيله
السد العالى
دابود
قرطاسي
طافة
دارموس
بيت الوالى
كلابشه
دندرو
جرف حسين
الدكه
كبان
الشيخ داود
عنيبه
وادى السبوع
كورسكو
توسكى
ابو سمبل
بلانه
ابوعوده
جبل الشمس
فرس
بوهن
جبل الشيخ سليمان
الشلال الثانى
وادى حلفا
ابوصير
سمنه
جزيرة ساى
عماره
سليبى
الشلال الثالث
كرمه
دنقله
الشلال الرابع
نورى
كوروا
الشلال الخامس
مروى
الشلال السادس
الخرطوم
ام درمان
افريقيا
النوبه

- ١ -

كانت الباخرة تشق طريقها فى نهر النيل العظيم وبجانبى مهندس مصرى يتطلع فى هدوء وكأنه لا يرى فى النيل الا نهرا كبيرا ينبع من هضبة البحيرات الاستوائية ثم ينحدر الى أرض مصر فيصب ماءه العذب فى البحر الابيض .. أما أنا فقد اعترتنى أحاسيس عجيبة فيها متعة وفيها غموض وتمنيت لو أن النيل بقى سرا خفيا فلا يعلم أحد من أين يجىء .

واقتربنا من خزان أسوان فأخذ مجرى النهر فى الاتساع وارتفعت الصخور على جانبيه ولم يكن بين الماء وحافة الصخر غير شريط ضيق من الخضرة تتناثر على جوانبه القرى البيضاء التى يتوسط كلا منها مسجد بمئذنته العالية . ولما جاوزنا المكان قليلا مد المهندس المصرى يده مشيرا الى القرى الراقدة فى أحضان الصخر ، ثم قال فى زهو ظاهر :

كل هذا سوف يزول لتحل محله بحيرة صناعية واسعة تغير معالم المنطقة ..

ورددت عليه فى أسف :

أليس ذلك شيئا محزنا ؟ ولكن زدنى علما بتلك البحيرة الجديدة .

ـ تبدأ هذه البحيرة من السد العالى الذى يقـــام الآن على مسافة خمسة أميال من خزان أسوان ، وتمتد ثلثمائة ميل عبر النوبة حتى تبلغ السودان . وسوف تغير البحيرة جغرافية النوبة فلن ترى تلك الصخور بل سوف يحل محلها مسطح واسع من الماء وكأنه بحر لجى .. تشـق عبابه السفن الكبرى جيئة وذهابا ..

وسألت المهندس : وما مصير سكان النوبة ؟

ـ سوف ننقلهم الى مكان آخر كثير الماء خصب التربة (١) • انهم اليوم فقراء فشريط الخضرة الذى يعيشون عليه لا يزيد عرضه على مائتى ياردة ، فكيف يتوافر لهم الرخاء على هذا الشريط الضيق من الزرع ؟

وفكرت فيما قاله المهندس فوجدته على حق • لقد كان أسلاف النوبيين يعيشون على هذه الارض فى سكينة ورخاء ، أما اليوم ، وقد تناسلوا وتكاثر عددهم ، فلم يعد فى قدرة الارض الوفاء بحاجتهم •

لقد كانت مصر تضيق بسكانها يوم كان عددهم عشرة ملايين ، وضاعف من ضائقة هؤلاء الملايين أن أموالهم كان يسلبها الاتراك وكبار الملاك والاستغلال الاستعمارى •

وفى احصاء سنة ١٩٤٧ بلغ عدد سكان مصر تسعة عشر مليونا ، وفى سنة ١٩٦٠ زادوا على خمسة وعشرين مليونا ، ولن يجىء عام ١٩٧٠ حتى يكون على أرض الوادى الضيقة فى مصر أكثر من ثلاثين مليونا ، وعلى الرغم من أن مصر تخلصت من تعسف الاتراك واستغلال الاقطاعيين والاستعمار ، فانها لن تستطيع اطعام ملايينها الكثيرة بهذا القدر من الماء الذى تحصل عليه من النيل فى الوقت الحاضر • ومن ثم لم يصبح أمامها الا أحد حلين : فاما أن يهبط عدد السكان الى خمسة عشر مليونا ، وهذا حل غير عملى ، واما أن تتخذ من الوسائل ما يكفل الابقاء على الجانب الاكبر من كميات المياه التى تذهب الى البحر سدى ، والتى يبلغ حجمها مائة وثلاثين مليار متر مكعب يمكن الانتفاع بها فى توليد القوى الكهربية للصناعة الى جانب زيادة رقعة الارض الزراعية ، أى ان السد العالى أصبح ضرورة حيوية لمصر ، ولكن بناء السد العالى سيؤدى الى تبديل ضمان بلاد النوبة ، وسيذهب بمخلفات الانسان وآثاره عبر القرون فى

---

(١) أعدت الدولة مشروعا هاما لتهجير أهالى بلاد النوبة الى منطقة كوم أمبو حيث تقام ٣٣ قرية تتوسطها عاصمتها « الناصر » مع المشروعات الاخرى اللازمة للمدينة والعمران تكلفت نحو ١٦ مليونا من الجنيهات •• وسيبلغ عدد المهاجرين نحو مائة ألف نوبى ••

هذه البقعة من الارض ، ففيها تلك المقابر الاثرية والمدن ، والقــلاع ، والمعابد الوثنية ، والكنائس المسيحية ، والكهوف التى كان يتعبد فيهـا القديسون ، وبقايا الحضـــارة الاسلامية فى عهدها الاول ، وكل تلك المخلفات الحضارية مصيرها الى الزوال •

ولكن مما يدعو الى العزاء أن بناء السد العالى سوف يبعث الرخـاء والرفاهية الى سكان النوبة ، أو بلاد « كوش » وأنهم سوف يستمتعون بالحقول الخضر اليانعة على حين تهبط تلك المنـــاظر الاثرية الى الاغوار وتغمرها مياه السد •

ان جنوبى النوبة هى بلاد « كوش » القديمة التى تحدث عنهـا أشعيا ، ومن المرجح أن السكان فيما قبل عهد الاسرات فى مصر ، قـد صعدوا فى وادى النيل نحو الشمال عن طريق النـــوبة ، وهؤلاء هم أسلاف الفراعنة ، الذين أقاموا حضارة عظيمة فى الشـــمال ، وشنوا الحروب وفتحوا المسالك التجارية الى افريقية ، أما ملوك « كوش » فقد أخذت قوتهم تزداد حتى استطاعوا ، فى احـــدى فترات تاريخهم ، أن يحكموا مصر ويضيفوا لقب « فرعون مصر » الى ألقابهم الملكية «الكوشية» •• ولقد توافد على هذا الاقليم المرتزقة من الاغريق ، حيث نقشـــوا أسماءهم على تلك الاماكن التى ارتادوها فى أقصى الجنوب ، كمـــا أن الجغرافى الاغريقى « سترابون » جال فى هذه المنطقة فوق عربة تجرها الثيران فى أثناء رحلته لزيارة معبد ايزيس فى جزيرة « فيلة » •

وألقيت نظرة على شاطىء النيل الخالى الا من شجيرات ونخلات ، فتذكرت أولئك الذين استوطنوه من قبل وطاب عيشهم فيه وبنوا فوقه لآلهتهم معابد ، وأقاموا حضارات ذات معالم ، وخلفوا فيه آثارا خلـدها التاريخ ، لقد سطر « الكوشيون » صفحات فى قصة حياة الانسان حين كان سكان بريطانيا يجرون الصخور فوق الوديان المقفرة ليقيموا لانفسهم ما يدفع عنهم تقلبات الجو وهجمات الوحوش •

ثم أمد بصرى الى الشرق حيث ساحل البحر الاحمر بصخـــوره

المرجانية ، كنت كأنما أرى سفن الفراعنة تشق عباب الماء فى طريقها الى بلاد بونت (الصومال) أو كأنما أنا اعرابى يرعى عنزات له فى هـذا الفضاء القفر ، فما زالت هذه الارض تجتذب اليهـا من يهاجرون من الجنوب والشرق ، ومن بينهم أولئك القوم المجهـولون الذين توافدوا عليها من حيث لا ندرى ـ بعد ميلاد المسيح بمائتى عام ـ فسيطروا على المنطقة كلها فتـرة من الزمن ، ولا تزال بقاياهم حتى اليوم تبعث الحيرة فى نفوس المنقبين عن الآثار .

ان الصمت الرهيب يخيم على المكان . والطبيعة كأنهـا فى سبات عميق ، ولكن هناك السد العالى ، ومن ورائه الخضرة والماء والحيـاة تنبعث مرة أخرى فى المكان المقفر فيمتلىء بالحركة ويزدهر بالامل .. ان النوبة الآن بلد الكهول ومن بلغوا سن الشيخوخة ، أما شبابها فانهـم يرحلون الى الشمال حيث يجدون العمل فى القاهرة وفى مدن الدلتا . ولكن لابد من التغيير ، ولسوف يبقى النوبى فى بلده بعد بناء السـد ليزرع ويمارس التجارة ، ومن يدرى ؟ .. فقـد ينقب عن الذهب والرصاص والنحاس فى جوف هذه الارض البكر .

وأود ، قبل أن اختتم هذا الفصل ، أن أشير الى حادث طريف . ففى أثناء جولاتى فى منطقة النوبة التقيت بجماعة من أبناء البلد جالسين على شاطىء النهر وبجانبهم اناء مملوء بالشاى الاسـود . وقد فرحوا بقدومى ، أنا الزائر الغريب . ونهضوا يرحبون بى ويقدمون لى أقداح الشاى الاسود .. ووثب الى من بينهم رجل مسن نحيل قائلا : يا سلام ! انى أعرفه حق المعرفة ..

ونظرت اليـه وسرعان ما تذكرته .. انه خادمى الامين (دهب خليل محمود) ومن خلال حديثى معه علمت أنه ادخر بعض المال وعاد ليفتح دكانا فى بلده ..

وقلت له : أين ابنك الصغير يا دهب ..؟ فقال : انه لم يعد صغيرا يا سيدى ، فقد أتم تعليمه وتخرج فى كلية الهندسة وهو الآن مهندس فى السد العالى ..

- ٢ -

والآن : لقد غادرنا أسوان وأصبحنا أمام خزانها الضخم ، الذى يشق طريقه بين صخور الجرانيت وكأنها أفيال ضخمة تلفحها حرارة النار فوق الشلال العتيق •

هنا •• فى أسوان •• سجل الفراعنة ، وولاتهم ، قصص مغامراتهم وحروبهم وتجارتهم مع سكان الجنوب ، وهنا تعثر على أولى صفحات التاريخ وقد ظلت تقاوم قسوة الطبيعة وعاديات الزمن طوال أربعين قرنا •

ان اسوان هى وجهة مصر الطبيعية من الجنوب ، ولم يستطع الفراعنة أن يمدوا حدودهم جنوبى أسوان الا بشق الانفس ، اذ توجد منطقة الشلالات ، واذا كان هؤلاء الفراعنة قد استطاعوا اجتياز الشلال الاول ، فان هناك الشلال الثانى ، عند وادى حلفا ، وهو أشد صعوبة من الشلال الاول ، ولولا ما كان هناك من مغريات كثيرة من ذهب وعاج وأبنوس ورقيق ، ما غامر المصريون القدماء بالتوغل نحو الجنوب ، وما بنوا القلاع والحصون ، وما أقاموا المراكز التجارية حتى منطقة الشلال الرابع •

وبلاد النوبة هى المنطقة الممتدة من وادى حلفا الى شمالى الخرطوم وكلمة « النوبة » تسمية جغرافية ، ولا تحمل أى معنى سياسى ، وهى مقسمة بين مصر والسودان • ولقد كان الاغريق يطلقون على كل ما يقع جنوبى أسوان اسم « اثيوبيا » أى بلاد أصحاب البشرة السوداء • ولذلك أطلق علماء الآثار المصرية القدامى على غزاة مصر من الجنوب اسم « الاسرة الاثيوبية » والحقيقة أن هؤلاء الغزاة ليسوا الا ملوك « كوش » أو النوبة •

ومضت بنا السفينة ولم تجد صعوبة فى اجتياز الشلال الاول ، فالأهوسة والعيون تساعد على أن يرتفع الماء الى نحو أربعمائة قدم « فوق سطح البحر » وبذلك يتساوى منسوب المياه أمام الخزان وخلفه ، وتستطيع السفينة أن تمر بسلام • ولقد عجبت لهذا القدر الهائل من الماء

الذى يحجزه خزان أسوان ، ولكن زال عجبى حين قال لى المهندس الذى رافقنى : ان السد العالى سوف يرفع الماء الى ستمائة قـــدم « فوق سطح البحر » وهنا أغمضت عينى وتصورت كيف أن ٤٦٠٠ مليون قدم مكعب من الماء سوف تعلو أرض مصر ، وأحسست بأن الارض تكاد تهتز تحت قدمى •

وعادت بى الذاكرة الى « سترابون » الجغرافى الاغريقى حين زار هذه المنطقة مع صديقه الرومانى « ايليوس جالوس » عام ٢٥ قبل الميلاد ، حيث يصف منطقة الشلال ، وكيف استطاع الملاح اجتيازها فى جرأة ومهارة • ولقد ظل النوبيون يقومون بمغامراتهم هذه فى اجتياز الشلال طوال ألفى عام حتى تم بناء الخزان عام ١٩٠٢ •

على أن الرحالة الانجليزية « اميليا ادواردز » قد زارت المنطقة عام ١٨٧٤ ووصفت كيف يتم الانتقال فوق الشلال ، وكان وصفها رائعا حقا تقول أميليا :

جاءت فئة من النوبيين الاشداء ووقفوا صفا فى انتظار الاوامر ببدء العمل،وحين أصدر «شيخ الخزان » أمره أخذ العمال يهيئون لناكل وسائل الراحة وبدأ بعدذلك استعمال المجاديف حتى عبرنا «الباب الكبير» وهنا شاهدنا القارب ينحدر بنا وكأنه يغوص فى لجة الماء ، وما هى الا وثبة أعقبتها رجفة ثم دفعة الى الامام حتى وجدنا أنفسنا فوق سطح مستو من الماء ومن حولنا النهر يهدر ويزبد انها مهارة فى فن الملاحة تتضاءل معها مهارة البحـارة الانجليز ؟

ان اميليا بريطانية ثرية رحلت الى ايطاليا طلبا للشمس والدفء ،ولم تعجبها شمس ايطاليا أو دفؤها ، فانحدرت جنوبا الى مصر ومنها الى النوبة وفيها (فى النوبة) اعجبت بسحر الطبيعة وبهرتها جهود الانســـان ، فكرست بقية حياتها لزيارة المنطقة وللدراسة والتنقيب عن الآثار • ومن أشهر مؤلفاتها « ألف ميل الى أعالى النيل » وهو لايزال حجة يرجع علماء الآثار المصرية اليه ، واليها يرجع الفضل فى انشاء صندوق التنقيب عن الآثار المصرية » عام ١٨٨٢ ، وكانت هى أول أمين للصندوق • ولا يزال هذا

الصندوق قائما تحت اسم « جمعية التنقيب عن الآثار المصرية » ويشرف على حفائر هذه الجمعية فى جنوبى النوبة البروفيسور « ولتر ايمرى » ، كما أنه يعمل على صيانة آثار النوبة بعد ان تغمر المنطقة البحيرة التىسوف يخلفها السد العالى (١) • وقبل وفاة أميليا اوصت بأن تخصص كتبهـــا ومكتبتها ومجموعاتها الأثرية وأموالها لانشاء كرسى لدراسة الآثار المصرية فى جامعة لندن ، وكان أول من شغل هذا الكرسى العـــــلامة « فلندرز بترى » ، وظل يشغل هذا الكرسى حتى وفاته عام ١٩٣٣ •

وقمة الخزان على مقربة من جزيرة « فيلة » المقدسة • وحين مررنا بها لم يظهر منها الا القليل ، لان التعلية الاولى لخزان اسوان عام ١٩٠٧ غطت الجانب الاكبر منها • وكان التصميم الاول للخزان أن يبلغ ارتفـاع الماء المقدار الذى يبلغه بعد التعلية ولكن اصوات الاحتجاج ارتفعت من كل جانب ، وكان اصحاب هذه الاصوات هم علماء الآثار المصرية ومحبو الآثار، فاقتصر ارتفاع الخزان على أن يحجز ٧٢ قدما من الماء بدلا من مائة قدم •• وقد علق ونستون تشرشل علىذلك فى سخرية لاذعة قائلا: «ان هذا القربان ، الذى يتمثل فى ١٥٠٠ مليون قدم مكعب من الماء وهـــو الذى قدمه حكماء الغرب الى الالهة « هاتور » هو أقسى انواع القرابين وأشدها حماقة • اذ كيف تناضل الدولة ويشقى الشعب فى سبيل ارضاء حفنةمن العلماء وفئة من السائحين يبتهجون بنقش اسمائهم فوق الصخور ؟ ••»

ومما له دلالة خاصة ويتفق مع روح العصر أن أحدا من العلماء لم يرفع صوته بالاحتجاج على بناء السد العالى ، على الرغم من أن بناءه يهدد بالفناء آثارا أكبر قيمة من معبد فيلة • ولقد أصبح علماء اليوم اوسع أفقا وأكثر تقديرا للحقائق ، فهم يسعون الى انقاذ ما يمكن انقـاذه من هذه الآثار ، وتسجيل ما يمكن نقله منها ، والتيقن من أن كل أعمـال التنقيب قد تمت قبل الشروع فى بناء السد العالى فى النوبة السفلى •

---

(١) أعد مشروع عالمىكبير لانقاذ آثار النوبة، وستساهم فيهمنظمة اليونسكو ومعظم دول العالم ، وقد بدأ تسجيل هذه الآثار ، قبل نقلها أو رفعها •

وحين شرعت الحكومة المصرية فى التعلية الثانية لخزان أسوان عام ١٩٢٩ كان البروفيسور « ايمرى » قد قام بمسح المنطقة كلها من الناحية الاثرية قبل ان تغمر المياه المنطقة حتى « أدندان » عند حدود السودان. وقد كان للعمل الذى قام به « ايمرى » ومعاونوه فضل كبير فى العثور على مقابر ملوك لشعب مجهول ، وكان أهم هـذه الحفائر ما عثر عليـه فى بلانة وسنعود للبحث فى هذا الموضوع مرة أخرى .

ولما وصلنا « فيلة » وجدنا أن ماء النهر قد غمر معظمها وغطى تلك الافنية التاريخية المشهورة ، ولكن المنظر الطبيعى العام من حولهـــا كان رائعا وجذابا ، فالشلال ، والنهر ، والصحراء ، والجبال المحيطة بالمكان كأنها أسوار عالية ، والجزيرة المقدسة بثروتها الضـــخمة من الآثار ، والحفائر والزخارف والنقوش ، التى كان يد الفنان قد رسمتهـــا منذ لحظات ، والاعمدة ، والابهاء ، كل ذلك يبعث فى المكان لونا فريدا من الروعة والجلال .

ان التاريخ يحدثنا عن « فيلة » وكيف أن قـــدماء المصريين كانوا يقسمون « بذلك الذى يرقد فى فيلة » ، والسبب فى ذلك أن الجزيرة اشتهرت بأنها تضم رفات « أوزيريس » وهذا ما أضفى عليها القداسة . ولكن شهرة فيلة ، باعتبارهـــا المثوة الأخير ، « لاوزيريس » قد زادت بعد اضمحلال شهرة « أبيدوس » وهذه كانت قد اشتهرت منذ القـدم بأنها مقبرة الاله « أوزيريس » ومع أننا لانعلـــم متى نقل الرفات من « أبيدوس » الى فيلة أو الظروف التى تم فيها ، يبدو أن عبادة « أوزيريس » و « ايزيس » قد أصابتها عوامل سياسية ، وأن انتقال الآلهة من « أبيدوس » الى فيلة جاء فى وقت متأخر ، ويحتمل أن يكون ذلك فى نحو سنة ٥٠ قبل الميلاد ، أى فى الفترة التى بين زيارة المؤرخ « هيرودوت » والمؤرخ « سترابون » لهذه المنطقة « فهيرودوت » لم يرو فى قصته شـــيئا عن « فيلة » وكذلك لم يرد فيما ذكره « سترابون » عن « أبيدوس » الا انها قرية صغيرة وكان ذلك فى نحو عام ٢٥ قبل الميلاد .

ومن المؤكد ان « فيلة » لم تظهر فى سجلات التاريخ الا فى وقت

متأخر ، وكان أول أثر فيها مذبح « لطهراقة » أحد ملوك كوش (التى يطلق على ملوكها الاسرة الاثيوبية) •

ويذكر التاريخ أن « طهراقة » توج فرعونا على مصر فى تانيس (صان) (١) باقليم الدلتا فى نحو عام ٦٨٩ قبل الميلاد ، ولم تكن « فيلة » قبل ذلك العهد ذات أهمية تاريخية ، ولم تأخذ مكانها فى التاريخ الا بعد أن انتقلت اليها عبادة « أوزيريس » و « ايزيس » وبعد أن اتجه فراعنة مصر من البطالمة وفى العهد الرومانى ، الى بناء المعابد الجميلة فيها ، وكذلك يبدو أن اكتشاف الذهب فى وادى العلاقى ، قرب الجزيرة ، قد زاد من شهرتها فى ذلك الحين •

وفى القرن الثالث قبل الميلاد كانت « فيلة » مركزا للمعهدالمقدس واصبحت كعبة يحج اليها المصريون والنوبيون على السواء •

وفى احدى القاعات التى غمرتها مياه النيل ترقد جثة « أوزيريس» ومن حول الجثة أدوات التحنيط ورموز البعث الخاصة بهذا الاله البطل ، الذى قال عنه الاثرى المصرى « ماريت » : ان « أوزيريس » هو رمز الخير •••• وهو الذى يتكفل بانقاذ الارواح من الفناء المطلق •• وهو وسط بين الانسان والالة •• وهو منقذ البشرية » •

وهناك أمل فى انقاذ « فيلة » (٢) وآثارها ، ذلك أن مهندسا مصريا اسمه (عثمان رستم) قد أعد تصميما للمحافظة على الجزيرة بانشاء سلسلة من السدود تفصل بين (فيلة) وبين الجزر المجاورة ، بحيث تظل هذه الجزيرة ومعابدها وسط بحيرة صغيرة خاصة بها تحت مستوى مياه خزان أسوان • وقد كان مشروع رستم موضع اهتمام المهندسين

---

(١) بلدة « صان الحجر » بمركز الحسينية بمحافظة الشرقية ، وما زال بها حتى الآن بعض آثار المعابد الفرعونية •

(٢) فيلة : جزيرة صغيرة يبلغ طولها ميلا وثلث الميل ، وهى فى منتصف مجرى النيل أمام فندق «كاناراكت» باسوان • وبها معابد اسسها تحتمس الثالث وتحتمس الرابع ، ورمسيس الثانى ، وقد نجم عن تعليه خزان اسوان أن أصبحت المياه عند الفيضان تغمر الجزيرة بمعابدها تقريبا •

الهولنديين وقدرت تكاليفه بنحو ٢٫١٢٢٫٠٠٠ جنيه استرليني ولكن لن يبدأ تنفيذ المشروع الا بعد عام ١٩٦٨ عندما يتم بناء السد العالى • وهكذا تبرز « فيلة » بثروتها التاريخية مرة أخرى الى الوجود •

ولقد قال السير « وليام ويلكوكس » مدير الخزانات فى الحكومة المصرية فى مطلع القرن العشرين : ان تجدد مياه الفيضان يكسب الاثار المصرية قوة ومناعة ، ولكن الخطر الذى يتهددها هو تلك الرواسب الملحية ، نتيجة لتسرب الماء فى مسام الصخر •

وهذه مشكلة كبيرة أمام الحكومة المصرية للمحافظة علىآثار الاقصر، اذ ظهرت على بعض المقابر وخصوصا فى (وادى الملكات) (١) مظاهر زوال النقوش والزخارف •

وعلى الرغم من أن معابد (فيلة) قد غمرتها المياه فان ما عليها من زخارف ونقوش ظلت باقية كثروة علمية ، فقد استطاع الاثرى النمساوى العلامة (يونكر) أن ينشر عنها مؤلفا قيما فى العهد الحديث، ولكن هناك نقطة ضعف فى الجهد العلمى الذى قام به « يونكر » هو أنه منقول عن صور فوتوغرافية ، اذ أنه لم تقم بعثة أثرية بتسجيل هذه النفائس نقلا عن أصولها فى « فيلة » • ولكن مركز الوثائق (٢) فى القاهرة استطاع أخيرا التقاط صور فوتوغرافية كاملة لآثار « فيلة » كما أن بعثة معهد الاثار الشرقية بجامعة شيكاغو ، التى اعمل بها ، قد استطاعت تصوير معبد بأكمله •

ومما تجدر الاشارة اليه أن الفيضان والرياح الشديدة التى تثير معها رمال الصحراء ، وكذلك تعاقب الحر اللافح والبرد القارس فى

---

(١) وادى الملكات : فى الطرف الجنوبى الاقصى لاثار ومقابر طيبة وبه نحو ٧٠ مقبرة للملكات والاميرات والامراء الاقدمين من الاسرتين التاسعة عشرة والعشرين •• ومن أهم المقابر مقبرة الملكة نفرتيتى ، ومقبرة الملكة تيتى •

(٢) مركز الوثائق :-يقصد المؤلف مركز تسجيل الآثار الذى انشىء بالقانون رقم ١٨٤ لسنة ١٩٥٦ فى عهد الثورة ••• وهدفه تسجيل الآثار المصرية ودراسة الفن والتاريخ الهندسى الذى تعبر عنه هذه الآثار•

هذا الجو القارى قد بعث عوامل الفناء التدريجى الى الآثار المصرية ، وهذا ـ وان خفى على الزائر العابر ، لايخفى علينا نحن الذين أمضينا وقتـــا طويلا بين هذه الآثار •

ولقد استطاعت بعثتنا التقاط آخر صورة لمعبد رمسيس الثالث فى مدينة « حابو » قرب الاقصر قبل انتقالها الى النوبة • ولكن كثـيرا من الاثار المصرية لم تسجل تسجيلا كاملا ، حتى انه فى وادى الملـــوك الذى يزوره السائحون كل عام لايزال هناك نقص كبير فى الاعمـــال العلمية والفنية • انه لاشىء أعظم فى عصرنا الحاضر من الاحتفاظ بتلك الذخيرة الكبرى من العلم والفن ، ولكنى أقول فى أسف : ان بعثتنا هى الهيئة العلمية الاجنبية الوحيدة التى تقوم بتسجيل تلك الاثار فى الوقت الحاضر •

ولنعد الى حديثنا عن رحلتنا الى النوبة •• لقد انتقلنا من « فيلة » ومعابدها الى مشـهد جديد ، فقـد سارت بنا سفينتنا قليـلا نحو الجنوب ووجدنا أنفسنا أمام بقعة رسمت عليها خطوط جيرية بيض على الشواطىء الصخرية ، وقيل لنا : ان هذاهو موضع الســـد العالى • لقد ارتفعت الصخور فى هذا المكان قليلا ، وضاق مجرى النهر قليلا أيضا • ولكن اذا نظرت نحو باب كلابشة (١) رأيت الصخور تزداد ارتفاعا ومجرى النهر يزداد ضيقا ، وقال لى مرافقى المهندس المصرى : ان اختيار هذا المكان لاقامة السد لايرجع الى ارتفاع الصخور وضيق مجـــرى النهر فحسب ، وانما يرجع أيضا لطبيعة قاع النهر نفسه •

ان أهم شىء فى بناء السدود ليس اقامة السد نفسه ، اذ أنالاعمال التمهيدية أهم بكثير من بناء السد ، لقد شاهدنا مهندسين والاتوماكينات تهدر فى حين يبـدو لك أنهـا لا تعمل شيئا • وهناك اثنـان من القوارب الكبيرة « صنادل » ركبت عليهما آلات وأجهزة كثيرة وهما رابضان فى المجرى وكأنهما لايستخدمان فى أى غرض • ان هذا المظهر الساكن

---

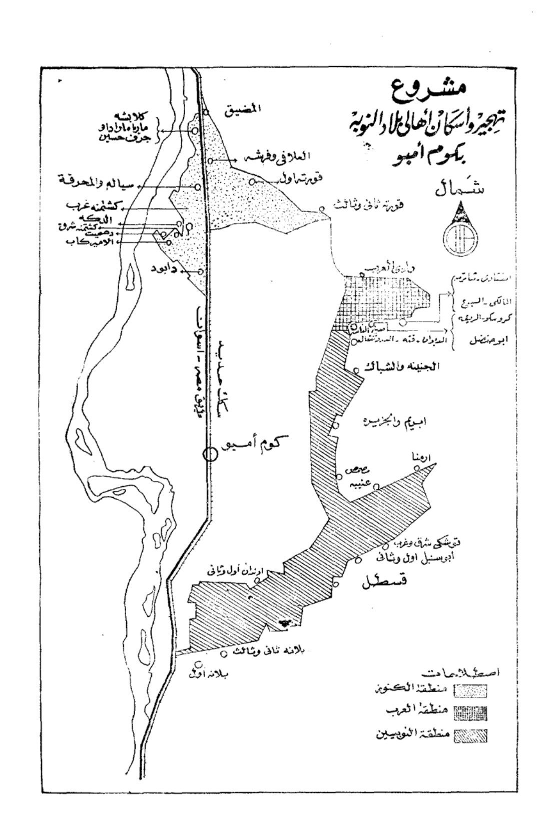
(١) كلابشة : أحد المعـابد الشهيرة فى بلاد النوبة ، قد تم نقل أجزائه من مكانها الأول الى أسوان منذ أكثر من عام •

يخفى وراءه حقيقة كبيرة وهى ان التمهيد لبناء السدود أهم بكثير من عملية بنائها ، وهذا ما يحدث الان فى مشروع السد العالى ..

وفى هذا الجو عاد بى الخيال الى القاهرة وغيرها حيث يتهامس مروجو الاشاعات الكاذبة بأن السد العالى لم يتقدم كثيرا منذ أن قام الرئيس جمال عبد الناصر يوم ٩ من يناير ١٩٦٠ بتفجير عشرة أطنان من الديناميت ايذانا ببدء الحفر وشق قناة التحويل ، وهى الاعمال التمهيدية التى لابد منها قبل الشروع فى بناء السد . ولقد انتقلت تلك الاشاعات المغرضة الى الصحافة البريطانية والامريكية ، وذلك بدافع الكيد للنظام القائم فى مصر ورجاله ، ولكن من الخير لنا ألا نلقى بالا الى تلك الاشاعات الهدامة وأن نرقب تطور المشروع .

ان السوفيت ، الذين مولوا المشروع وزودوه بالمعونة الفنية ، لهم شهرة كبيرة فى بناء السدود ، وقد أثبتوا فى العهد الحديث كفايتهم فى ميادين كثيرة ، ومهما يكن رأينا فى نظامهم السياسى يجب الا نكون من الحماقة والغباءبحيث نتصور أن السوفييت يسمحون لانفسهم بالفشل فى مشروع تتجه اليه انظار العالم اجمع . وهؤلاء القوم ، الذين استطاعوا أن يسخروا الفضاء ، لن يعجزوا عن بناء السد العالى ، الا أنه عمل يتضاءل الى جانب ما حققوه من انتصارات علمية وفنية ، واستطيع أن أؤكد أن السد العالى سوف يقام ، وسوف يتم بناؤه قبل عام ١٩٧٠ وهو الموعد المحدد للانتهاء منه ولكن هناك شرط واحد هو استمرار الاستقرار السياسى فى مصر .

ان المقرر أن تتم المرحلة الاولى فى بناء السد العالى عام ١٩٦٤وفى خلال هذه المرحلة سيحول المجرى عن طريق القناة وتبنى سدود فرعية وخلفية . وحين تتم هذه المرحلة يبدأ السد الى حد ما ، فى اداء وظيفته، بحيث يستطيع كما هو مقرر ، رى مليون فدان من الاراضى المستصلحة، بالاضافة الى تحويل ٧٠٠ الف فدان فى الوجه القبلى من نظام رى الحياض الى نظام الرى الدائم ، وحين يتم ذلك فان الدخل القومى فى مصر سوف يرتفع بنسبة ٣٥ ٪ .



مشروع
تهجير وإسكان أهالي بلاد النوبة
بكوم أمبو
شمال
المضيق
كلابشه
ماريا مارداو
جرف حسين
العلاقي وفرشه
قورته اول
سيالة والمحرقة
قورته ثاني وثالث
كشتمنه غرب
الدكه
كشتمنه شرق
دهميت
الامبركاب
دابود
وادي العرب
ابو حنضل
الجنينه والشباك
سكك حديد
طريق مصر - اسوان
كوم أمبو
ابريم والجزيره
ارمنا
عنيبه
قتو شكي شرق وغرب
ابوسنبل اول وثاني
اوندان اول وثاني
قسطل
بلانه ثاني وثالث
بلانه اول
اصطلاحات
منطقة الكنوز
منطقة العرب
منطقة النوبيين

وموقع السد العالى يبعد مسافة أربعة أميال عن خزان اسوان الحالى ، وسوف يرتفع الى ٥٨٦ قدما « فوق سطح البحر » ويبلغ طوله ميلين ، أى أنه يعادل طول خزان اسوان بمقدار ٣/٤ ١ مرة ، أماارتفاعه فيبلغ ٣٦٤ قدما ، فى حين أن ارتفاع خزان اسوان ١٢٥ قدما فقط . وسوف يخزن السد العالى من الماء ما يعادل ٢٥ مرة من طاقة خزان أسوان ، وذلك فى بحيرة طولها ٣٠٠ ميل تمتد حتى « كوشا » فى النوبة العليا بالسودان . أما كمية المياه التى تختزنها البحيرة فسوف تبلغ ٤٦٠٠ مليون قدم مكعب .

اما تكاليف السد نفسه فهى ١١١ر٥ مليون جنيه مصرى ، يضاف اليها ١٤٩ر٥ مليون جنيه لاقامة محطات توليد القوى وتوزيع الكهرباء على بلاد مصر كلها ، ورى مليون فدان أخرى من الارض بجانب ما يحول من نظام رى الحياض الى نظام الرى الدائم وانشاء الطرق وغيرها . يضاف الى ذلك كله عشرة ملايين جنيه تعويضات لتهجير سكان النوبة ، وبذلك تكون جملة التكاليف ٢٧١ مليون جنيه والاستثمار الفردى فى الاراضى الجديدة يقدر بنحو ٩٦ مليون جنيه .

ليس هذا المبلغ كبيرا اذا قيس بعمل انشائى لزيادة النماء والرخاء ولننظر الى ما تتكلفه الحروب مثلا ، وهى أعمال تخريبية نجد أن أية حرب صغيرة جدا تكلف ٣٦٧ مليون جنيه بأقل تقدير ، أما ما يطرأ على الزراعة من تحسن وما يتم من مشروعات التصنيع نتيجة لبناء السد فسوف تحصل منه الحكومة المصرية كل سنة على نحو ٢٢ مليون جنيه، وذلك من الضرائب المباشرة وحدها ، كما أن الدخل القومى فى مصر سوف يزيد بمقدار ٢٥٤ مليون جنيه فى السنة ، وهكذا يقدر المصريون أن السد سوف يغطى نفقاته فى السنوات القليلة الاولى من انشائه .

ان المصدر الاستثمارى فى مشروع السد هو الاتحاد السوفييتى ، ولقد بعثت العوامل السياسة حيرة كبيرة فى نفسى ، وتساءلت : لماذا تخلفت الدول الغربية عن الحصول على هذه الصفقة وما يحققه ذلك من فائدة مادية وسمعة طيبة ونفوذ فى قلب الشرق الاوسط ؟ ..

لقد أذاعت الجمهورية العربية المتحدة على العالم أجمع أنها حاولت عام ١٩٥٦ تمويل مشروع السد فلم تستطع ، لان بعض الدول استخدمت نفوذها لدى البنك الدولى ، كى يمتنع عن منح مصر قرضا لتنفيذ المرحلة الاولى من المشروع • وبعد ذلك اعلنت الجمهورية العربية المتحدة أنها على استعداد لقبول قرض ، بشروط معقولة من أية جهة ، بحيث لا تمس الشروط سيادتها أو استقلالها • وفى أكتوبر سنة ١٩٥٨ تلقت موافقة من الاتحاد السوفييتى بقبول هذه الشروط •

واذا كانت بعض هذه الدول تتهم (ناصر) الان بأنه تجارى فى اتجاهه نحو الكتلة الشرقية فان اللوم انما يقع على تلك الدول نفسها ، اذ كان فى استطاعتها أن تقوم بما يقوم به الاتحاد السوفييتى الآن • وكان عليها أن تدرك أن مشروع السد العالى ليس نزوة وطنية ، ولكنه ضرورة حيوية لمصر •

ولا ننسى ان الجمهورية العربية لاتقبل الشيوعية كأسلوب للحياة ، بل ان من الخطر على أى انسان أن يكون شيوعيا فى الجمهورية العربية المتحدة • ولكن كان لا بد لتنفيذ المشروع من الحصول على المال من أية ناحية • لقد كان السوفييت يتحينون الفرصة ، ومن ثم قدمنا لهم الصداقة والنفوذ فى افريقية لقمة سائغة •

ان البحيرة التى يكونها السد العالى سوف تحجز من المياه أربعة أضعاف ما يحجزه سد (هوفر) على نهر كلورادو ، وهو أكبر السدود المنشأة على الصخر فى أمريكا • ولو أمكن تفريغ مياه ثلاثة من أكبر سدود العالم المنشأة على الصخر فى بحيرة السد العالى فلن تملأ الا نصفها ، كما أن الطاقة الكهربية التى تنتجها هذه السدود الثلاثة لن تزيد على ثلث ما ينتجه السد العالى وحده ، وهذه السدود الثلاثة هى : سد « ديفز » على نهر كلورادو ، وسد (مايبورو) فى اليابان وسد (مسيربونسو) فى فرنسا •

غير أننى مازلت أذكر أن هذه البحيرة الهائلة سوف تغمر جانبا

كبيرا من المنـاطق الاثرية ، ومن ثم يجب أن تفحص هـذه الاثار فحصا دقيقا قبل أن تغمر المياه تلك المنطقة ، وبذلك يمكننا أن نسـتكمل قصـة مصر القديمة •

ولقد حصلت بعثة من جامعة كولومبيا على منحة ماليـة قدرها ٣٩ ألف دولار ، للقيام بدراسة شاملة لاثار العصر الحجرى فى النوبة العليا والسفلى ، كما أن عددا من علماء التاريخ القديم وعلماء الاثار من مختلف بلاد العالم تطوعوا للمساهمة فى هذه الدراسة بجهودهم الخاصة ، وليس من المتوقع أن نجد فى النوبة وسـيلة لحل كل ما استعصى من مشكلات التاريخ ، اذ أنها كانت منطقة لعبور الشعوب حين أخذت فى الارتحـال منذ الازمنة البعيدة • وقد ثبت أن النوبيين هم اجداد المصريين القدماء وأن الاثار التى اكتشفت فى النوبة تلقى ضوءا على تاريخ الأسرات المصرية وتجارة الفراعنة وغزواتهم وهزائمهم ، وكذلك أنبأتنا النوبة كيف أن المسيحية زحفت على طول وادى النيل حتى امتدت من البحر الابيض الى اثيوبيا وكيف أن موجات الغزاة العرب وقد تدفقوا على افريقيـة وعبروا البحر الى الاندلس لم يتوقف زحفها على بقية أوربا الا بعدهزيمة العرب فى بواتييه (بلاط الشهداء) على يد « شارل مارتل » ؟ وكيف أن بعض فرق الغزاة العرب قد انسلخت عن القوة الاصلية واتجهـت الى النوبة وقضت على المسيحية هنـاك ، ولم يبق من آثارها الا أثيوبيا وبعض جماعات متناثرة فى منحنى النيل بين حلفا والخرطوم •

ان مياه السد ـ والحالة هذه ـ سوف تغمر آثار العصر الحجرى فى النوبة ، وكذلك ما خطته شعوب هذا العصر من نقوش ـ على الصخر ، كما أنها ستغطى الحصون التى أقامها فراعنة مصر ، منذ أربعـة آلاف سنة ، على الصخر فى فن استراتيجى يدل على وعى عسـكرى كبير ، وذلك لكى تحكم ممرات النهر ومراكز التجارة بين مصر والسودان الى افريقية الاستوائية ، وليس من المستطاع صيانة هـذا التراث الاثرى العظيم الا اذا تجمعت لذلك جهود الرجال وتوافر المال والوقت •

وما قيل عن هذه الاثار يمكن أن يقال عن معابد النوبة فى مصرفى

عصر الدولة الفرعونية الحديثة ، ومن اهمها ، جميعا معبد ابو سنبل ، وقد أعد مشروع هندسى ضخم لانقاذ هـــــذا المعبد ، وذلك بانتزاع الصخور المحيطة به ثم رفعه الى نحو مائتى قدم ، فلا تغمره مياه التعلية • انه معبد ضخم نحتت أبهاؤه الفسيحة الى مسافة ١٨٠ قدما فى قلب الجبل أما تمثال رمسيس الثانى القائم أمام وجهته فيرتفع الى ٧٢ قدما •

ويعادل وزن كتلة الصخر المطلوب رفعهـــا ثلاثا من أكبر بواخر العالم ، وتبلغ نفقات رفع هذه الصخور ١٨ مليون جنيه •

وكذلك تهدد مياه التعلية المعابد الاغريقية والرومانيـة والكنائس التى بنيت فى أوائل العصر المسيحى وعليهـا صـور القديسـين ، وتخفى آثار الاديرة ذات الحصون التى كان يحتمى فيها المسيحيون الاوائل من هجمات الوثنيين ، وذلك الى جانب عدد لا يحصى من المقابر والاضرحة التى تمثل كل العصور التى مرت بها النوبة ، أى منـذ العصر الحجرى حتى العصر الاسلامى ثم الى وقتنا الحاضر •

ان كل هذه الآثار ـ وان لم يبد بعضها جميلا أو ذا قيمة فنية ـ سجل تاريخى حافل كما أوضحنا ، ومن حسن الحظ أن جهودا طيبـة قد بذلت لتسجيلها قبل ان تغمرها المياه ، ويرجع الفضـــل فى ذلك الى الجمهورية العربية المتحدة وحكومة السودان •

ولقد أدركت الجمهورية العربية المتحدة أن انقـاذ آثار النـــوبة وكنوزها التاريخية سوف يكلفها أكثر مما تطيق ، ومن ثم طلبت المعونة من منظمة اليونسكو ، واستجابت المنظمة وبدأت حملة عالميـة فى ٨ من مارس ١٩٦٠ ، اذ وجه « فيتورينو فيرونيز » المدير العام لليونسكو الى دول العالم النداء التالى :

« ان تراثا حضاريا من أنفس ما صنعته يد الانسان على وجـــه البسيطة ، يوشك أن يختفى ••• وليس من السهل تحديد الاختيار بين المحافظة على هذا التراث وبين رفاهية شعب فى ظل احدى حضـارات

الانسان الكبرى ، كما أنه ليس من السهل الاختيار بين المعابد والمحصولات الزراعية ...

وان هذه الآثار ليست ملكا لبلد واحد أو لعدد من البلاد ، وانما هي ملك للعالم كله ، اذ هي تراث مشترك يحمل في ثناياه رسالة سقراط وسمفونيات بيتهوفن . هي كنوز عالمية يجب ان نحميها ، وان حمايتها في حاجة الى جهود عالمية .

وقال مدير اليونسكو ان هذا النداء انما هو دعوة الى مختلف بلاد العالم للمساهمة في ذلك العمل بأموالها وخبرائها الفنيين ، وليست اليونسكو الا وسيطا بين هذه البلاد وبين الجمهورية العربية المتحدة والسودان .

ولقد استجاب العالم لنداء اليونسكو ، ولكننا لاندرى هل استجاب بالقدر الذى تتطلبه المحافظة على هذه الآثار أم لا ؟ ان انقاذ معابد فيلة وأبو سمبل وحدهما يتكلف مبالغ طائلة من المال ، وهذا لا يتوافر بترعات الافراد أو معاهد الاثار ، وانما يجب ان تشترك الحكومات في ذلك اشتراكا جديا . وحتى كتابة هذه السطور لم يستجب للنداء الا عدد قليل من الحكومات ، اذ قدمت حكومات بلجيكا والبرازيل ويوغوسلافيا وباكستان وكمبوديا مبالغ للمشروع ، أما حكومة الجمهورية العربية المتحدة فقد خصصت في ميزانيتها لصيانة اثار النوبة ثلاثة ملايين ونصف مليون من الجنيهات موزعة على سبع سنوات تبدأ من سنة ١٩١٦ وتنتهى في سنة ١٩٦٧ ، كذلك طلب الرئيس الامريكى كنيدى من الكونجرس الموافقة على اعتماد عشرة ملايين دولار لهذا الغرض .

ولنعد الى الحديث عن رحلتنا : لقد وصلنا « بيت الوالى » بعد الظهر ، وهناك وجدنا أنفسنا أمام صخر اقتطعت بعض أجزائه لبناء معبد كلابشة ، وهو من اكبر المعابد النوبية ، ولقد أعجبت كثيرا حينما شاهدت هذا المعبد وكان في يدى كتاب العالم الاثرى شامبليون « رسائل مصرية ونوبية » ان هذا المعبد ـ وان كان يمثل فترة اضطراب الفن المصرى ـ

ذو قيمة أثرية عظيمة .. ولقد أرسلت حكومة المانيا الاتحادية بعثة لفك أجزاء المعبد واعادة تركيبه على مكان قريب من موقع السد الجديد .

وأود ، قبل ان اختتم الحديث عن النوبة المعاصرة ، أن أشير الى ما يمتاز به أهل هذه المنطقة من نظافة طبيعية ليس فيها تكلف ولا ادعاء . وأذكر أن العلامة « ايمرى » قد علل نظافة أهل النوبة بأنهم اعتـــادوها بسبب ممارستهم الخدمة فى بيوت الاسر المصرية الكبيرة ، ولكننى اختلف معه فى هذا التعليل ، ذلك أن الاسر المصرية الكبيرة انما تستخدم النوبيين لما امتازوا به من نظافة ، فنظافة النوبيين من خصـــائصهم العنصرية التى تميزهم عن غيرهم من العناصر المجاورة .

الجزء الثاني

النوبة في عهودها الماضية



نقلا عن مركز تسجيل الوثائق

« ١٠ »

ان النوبة ـ كمصر ـ طرأت عليها تغيرات كبيرة فى الاعوام المائة الاخيرة ، فقد كان عهدها السابق عهد طغيان تركى يتمثل فى حكم محمد على وأسرته ، ولقد كان ذلك الحكم جائرا . أما العهد الحاضر فهو رخاء وسعادة وان كان يشوب النوبة التعلق بأمور الدنيا .

لقد كتبت الرحالة الانجليزية « أميليـــا ادواردز » عام ١٨٧٤ عن أهل النوبة ، فقالت : انهم لايزالون « همجا فى قرارة نفوسهم » ولكنى لم أشاهد على ذلك أى دليل . حقيقة انه اكتشف رقصات همجيةمرسومة على جدران المقابر المصرية القديمة تمثل تشييع جنازة ، وتزعم « اميليـا ادواردز » أنهـا « اثيوبية » أى « كوشية » ، ولـكن الملابس والحركات المرسومة كلها تدل على أنها رقصات جنائزية فرعونية قديمة .

ولقد شاهدت ابنة صياد نوبى ترقص أمام والديها فى ضوء القمر لتسليتهما ، فكانت تتلوى فى مرونة كالافعى ، ممـــا ذكرنى بأصلهـــا الافريقى ، ولكنها من غير شك رقصة لاتخلو من سحر وفتنة .

كذلك كتب الرحالة « سانت جون » عام ١٨٥٨ يقول : ان المرأة النوبية حين تتطيب تمسح شعرها كثيرا بزيت الخروع أو الدهن ، فاذا ما سطعت عليها الشمس ذاب وتساقط وخلف رائحة كريهة ، ولكننى رأيت غير ذلك ، فالمرأة النوبية تلبس كشقيقتها الريفيـة المصرية ، فهى تغطى جسمها من الرأس الى القـدم ، ونساء النوبة خجولات لا يقتربن من الغريب ، وقد يبدو ذلك على خلاف ما كتبه « جادزبى » عام ١٨٤٦ اذ قال : ان المرأة النوبية لا تمانع فى الحديث مع الغرباء من غير حجاب ، كما أن زوجها لا يمانع فى ذلك ولا يعترض عليه ، والنوبى لا يشك فى عفاف زوجته ولـكن اذا تسرب الى نفسه الشـك بادر بوضعها فى جوال

وأغرقها فى النيل • وعلى الرغم من كل ذلك فاننى أعتقد أن المرأة النوبية من أطهر نساء الشرق •

ويقدم لنا « جادزبى » صورة أخرى للحياة فى النوبة منذ مائة عام، فيقول : ان الجنود كانوا ينتزعون الشبان من بين عائلاتهم للخدمة العسكرية تحت ظروف لاتطاق ، فأذا أفلت من أيديهم أحد كان عليه أن يدفع ضرائب باهظة لاتكاد تبقى له من محصوله الضئيل ما يكفى اطعام أسرته ، هذه الصورة انما توضح مدى ما طرأ على النوبة من تغيير وكيف انها الان اصبحت تتمتع برخاء نسبى ؟

ثم هناك صورة أخرى من صور الحياة فى النوبة رسمها الرحالة الفرنسى « جان لابورت » وكان قد ارتاد النيل من منبعه الى مصبه فى قارب من المطاط ، يقول « لابورت » انه لم يجد فى رحلته الطويلة من هم أكثرأمانة من أهل النوبة ، حتى انه كان يترك القارب ، بما فيه من طعام وملابس وأجهزة ، أياما كاملة ، فلا يقربه أى نوبى ولا يمسه بسوء ، ويعلق على ذلك قائلا : ان النوبى ـ اذا لم تفسده حياة الحضر ـ مستقيم عفيف النفس كريم أمين الى أقصى حد •

ولقد ظلت النوبة صفحة مطوية أمام الاثريين حتى قامت بعثة جامعة شيكاغو بمسحها مسحا أثريا عند التعلية الاولى لخزان أسوان عام ١٩٠٧، ولم تكن لدى العالم أية معلومات عن الشعوب التى عاشت فى هذه المنطقة أو عن حضارتها ،ما عدا بعض اشارات عابرة الى القبائل النوبية التى دونتها البعثات الاثرية فى سجلاتها عن تاريخ الاسرات الفرعونية • ولكن المسح الاثرى للمنطقة كشف عن وجود تجمعات بشرية كبيرة فى جنوب شلالات أسوان كانت ذات تاريخ متصل وكانت تشتغل بالزراعة والصيد والقيام بخدمات النقل بين شمالى وادى النيل وجنوبيه •

وأقدم المجتمعات البشرية التى اكتشفت آثارها فى النوبة ـ جماعة ذات شبه كبير بسكان مصر فى عهد ما قبل الاسرات •

ويبدو أن هذه الجماعات النوبية كانت من العنصر الذى نشأ منه

المصريون نفسه ، فقدكانوا يستعملون الاوانى الخزفية والظران والجلود والحلى التى كانت تستعملها الجماعات التى كانت تسكن فى شمالى الوادى. ويستنتج من ذلك أن المصريين ، فى عهد ما قبل الاسرات ، قد احتلوا وادى النيل من الدلتا حتى جنوب الشلال الاول ، وأن القبائل التى كانت تسكن هذه المنطقة على اتصال دائم فيما بينها .

وكذلك يمكن أن نستنتج أن الجماعات التى كانت تسكن فى جنوب الشلال ، وذلك بعد الفترة الاولى من عهد الاسرات فى مصر ، قد تخلفت عن التطور الحضارى العظيم الذى شمل المناطق السفلى للنيل وهو التطور الذى يعرف فى التاريخ بالحضارة الفرعونية ، وان هذه الجماعاتالجنوبية ظلت متمسكة بصناعاتها البدائية وأسلوب حياتها القديم ، اذ أن هذه الصناعات كانت ولا تزال ، سمة من سمات النوبيين حتى اليوم ، فلقد استبدل المصريون الاوانى النحاسية بالاوانى الخزفية أو الفخارية - ولكن الجماعات الجنوبية ظلت تصنع أوانيها الخزفية صناعة يدوية ، وكذلك عرف المصريون عجلة الخزاف - وهى من أدوات صنع الخزف - وبذلك استطاعوا تطوير هذه الصناعة والارتقاء بها الى درجة عالية ، فى حين أن هذا التطور الفنى الكبير لم يكن ذا أثر على النوبة ، فقد ظل النوبيون يشكلون آنيتهم الخزفية بأيديهم وتدل الآثار ، التى اكتشفت فى المقابر الاثرية ، على أن هذا التخلف الحضارى اقترن باختلاط عنصرى بين النوبيين والزنوج . ومن ثم أصبح الشلال الاول أشبه بحاجز عنصرى يفصل بين الشمال والجنوب .

واذا كان الامر كذلك فمن أين جاءتهذه العناصر المصريةالبدائية؟ ان هناك نظرية تقول : ان هذه الجماعات هاجرت من آسيا الصغرى ،كما أن هناك نظرية أخرى تقول : ان المصريين هم بقايا السلالات التى خلفتها قارة « أطلانطا » التى طواها التاريخ .

وفى عهد يوليوس قيصر كتب المؤرخ الاغريقى (ديودوروس سيكيلوس (تيودور الصقلى) تاريخا للعالم جاء فيه ما يلى : يقول المؤرخون : ان الأثيوبيين (أصحاب البشرة السوداء) هم أول السلالات

البشرية ، وأن غالبية العادات والتقاليد المصرية من مخلفات هـــؤلاء الاثيوبيين •

ويرجح علماء الاثار المصرية الحديثون رأى « تيودور الصقلى » ، فقد كتب « أ • ج آركل » الذى يشرف على الحفائر فى السودان يقول : ان لوراثة التقاليد دلالة تاريخية كبيرة ، واذا كان الجانب الاكبر من الحضارة المصرية يرجع الى أصول آسيوية فان تقاليد المصريين وعاداتهم تدل على أن أجدادهم قدموا من بلاد « بونت » أو بلاد الآلهة كما كان يطلق عليها ، وكان يرجح أنها بلاد الصومال ، ومن المحتمل أن الجنس الاسمر الذى عاش فى مصر فى عصر ما قبل الاسرات قد انحدر من هذه الأصول الصومالية •

أما البروفيسور (بلوملى) من أساتذة جامعة كمبردج ، وكان قد زار النـــوبة فيما بين عامى ١٩٦١/٦٠ ، فيقول : ان مصر وبابل نشأتا من عنصر واحد ، وان هذا العنصر وفد من منطقة القـــرن الافريقى « وهى المنطقة التى تسمى الآن بلاد الصومال وكانت تسمى قديمـا بلاد « بونت » » ويبدو أن هذه الجماعات البونتية اتجهت شـمالا على طول ساحل البحر الاحمر ثم عبرت الجبال والصحراء عند القصير الى وادى النيل •

غير أننى أرى أن هذا العنصر ، الذى انحـــدر منه المصريون ، وقد نشأ أولا فى جنوبى جزيرة العرب ، ثم عبر البحـــر الاحمر واستقر فى الجانب الافريقى ، ومن دلائل ذلك أنه عثر بين مخلفات عصر ما قبـــل الاسرات بمصر على رسوم تمثل قوارب ، ولو أمكن العثور على مثـــل هذا النوع من القوارب فى الصومال ، لزادت المسألة وضوحا •

ومهما يكن من أمر فلابد من دراسات أثرية شاملة لتحـــركات الشعوب والقبائل فى افريقية ، وبخاصة أن بناء السد العالى سيحول دون استجلاء كثير من هذه الحقائق •

ولقـد علمت من الاسـتاذ (آركل) أنه عثر فى الخرطـوم ، وهى

الى الجنوب من منطقة النوبة وتبعد عنها كثيرا على مخلفات شعب زنجى بلغ مستوى من الحضارة لم تكن مصر القديمة قد بلغته في عهده ، ومن يدرى ؟ فلعل مصر فى عصر ما قبل الاسرات قد نقلت حضارتها عن هذا العنصر الزنجى •

ويستطرد (آركل) فى الحديث عن الحضارة القديمة فى السودان فيقول : انه لابد من الكشف عن بقايا حضارتين احداهما حضارة « جوج » والاخرى حضارة « أم درمان » لنعرف : هل كانتا حضارة لعناصر زنجية كتلك التى اكتشفت فى الخرطوم أو العناصر سمراء كتلك التى ينحدر منها قدماء المصريين ؟ •

على أننا نجد على مسافة سبعمائة ميل من « تمبكتو » آثار نهر كان يصب فى « النيجر » • ولقد اكتشفت فى المجرى الجاف لهذا النهر بقايا أوان من الخزف أشبه بالاوانى التى اكتشفت فى الخرطوم ، وجوج ، وأم درمان •

يضاف الى ذلك أن الاوانى الخزفية ذات الخطوط المموجة نفسها قد اكتشفت فى كسلا على البحر الاحمر ، وهذا النوع من الخزف نفسه اكتشف فى شمالى العراق • ويعلل ذلك الاستاذ « آركل » بأن هذا النوع من الخزف ظهر أولا فى آسيا ثم نقله الصيادون الزنوج ، عبر البحر الاحمر ، الى السودان ، ومنه انتقل غربا الى الصحراء الكبرى ، وذلك قبل أن يصل الى شمالى وادى النيل والدلتا ويصبح أحد أركان الحضارة الفرعونية • واذا كان ذلك صحيحا فلا بد أنه تم حين كانت الصحراء الكبرى مروجا خضرا يانعة فيها الشجر والنبات والزرع ، وحين كانت دلتا النيل مخاضات ومستنقعات ، أى أنها لم تكن تصلح للسكنى كالمناطق الجنوبية • كما أن الكشوف الاثرية فى منطقة «الحجاز» فى الصحراء الكبرى تثبت أن الاتصال بوادى النيل كان فى تلك العصور أسهل كثيرا مما هو عليه الآن •

وكذلك تثبت الثديات والحفريات التى كشفتها البعثات الاثرية

فيما حول الخرطوم ، ما كان بين هذه المنطقة ، وما يليها غربا من الصحراء الكبرى ،من علاقة وثيقة وان هذه الصحراء كانت يوما ما أرضا خصيبة ومنتجعا طيبا للانسان الاول .

هذه هي البحوث التي يقوم بها الاثريون الآن في افريقية ولعلها تكشف لنا الكثير عن اصول الحياة في مصر والنوبة .

ولقد خلف لنا العصر الحجرى الشيء الكثير من آثار النوبة ، وقد أحصيت هذه الآثار وتم تسجيلها . ويقدم لنا « دنبار » وصفا شائقا للنقوش والزخارف التى عثر عليها فى صخور المنطقة بين اسوان ووادي حلفا ، وذلك فى كتابه « النقوش الصخرية فى النوبة السفلى » .

يقول دنبار : ان المنطقة التى بين قرية « خور رحمة » (وبيت الوالى) تعتبر معرضا فنيا رائعا لعبقرية الانسان الاول ، ولكن هذه الثروة الاثرية سوف تختفى بعد بناء السد العالى ، وقد أبدى معهد الاثار التشيكى فى القاهرة وجامعة « همبودلت » فى برلين ، استعدادهما لتصوير هذه النقوش الاثرية قبل ان يمحوها ماء السد .

وقد عثر « مايير » والدكتور « بالمادى كسولا » فى « عقبة » جنوبى وادى حلفا على نقوش صخرية تمثل الفترة التى تبدأ من العصرالحجرى المتوسط حتى العصر المسيحى وكان من بينها صور لحيوانات لا تعيش الآن فى هذه المنطقة ، مثل الفيل ووحيد القرن « الخرتيت » والزرافة وقد قدر البروفيسور « كرين » الاستاذ بجامعة متشجان ، عمر هذه الحفائر بنحو ٧٠٠٠ سنة أو ٧٥٠٠ سنة .

ومما أثار دهشة الاثريين أن هذه النقوش تشابه مشابهة تامة ما خلفه فنانو اسبانيا من نقوش فى العصر الحجرى الوسيط (الميزوليثى) ، وليس فى ذلك ما يدعو الى الاستغراب ، فان البحوث الاثرية التى قام بها أخيرا الدكتور « هوفمان » فى جنوبى افريقية عن العصر الحجرى ،أثبتت أنه كان يسكن فى جنوبى افريقية عنصر أطلق عليه اسم « شعب ولتون » وأن هذا الشعب قد هاجر من أوربا الى جنوبى افريقية عن طريق

شمالى افريقية والصحراء التى كانت فى ذلك العصر أرضا ذات زروع يانعة ، وأن هذه العناصر الاوربية جلبت فن النقش على الصخور .

ان الحديث ذو شجون .. لقد كنت أتكلم عن النوبة وآثارها ، ولكن الحديث عن الآثار أغرانى ، وصرت أشبه بمن يطوف فى رحلة بين آسيا وافريقية . والواقع أن هجرات الشعوب قامت بدور كبير فى انتقال الحضارة . وفى ذلك يصدق قول الاستاذ « آركل » : مادامت هذه الحواجز قائمة بين الجهود الاثرية فى السودان ومصر فان كل كشف أثرى جديد ، فى أية جهة من افريقية سيظل ذا طبيعة اقليمية منفصلة حتى يجىء يوم ترتبط فيه البحوث الاثرية فى منطقة وادى النيل بعضها ببعض ، وحينئذ نبدأ فهم النشاط البشرى والتقدم الحضارى فى افريقية.

ويقول « فيركوتز » الذى كان يشرف من قبل على مصلحة الاثار السودانية : ان النوبة العليا غنية بالاثار التاريخية التى تستحق الدراسة ولكن دراسة الاثار السودانية أهم منها لانها سوف تفتح أمامنا الطريق لدراسة تاريخ افريقية كله .

ويضرب مثلا لذلك قائلا : انه فى عصر ما قبل الاسرات فى مصر، أى فيما بين سنة ٥٠٠٠ وسنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، كانت مصر العليا والنوبة ، أى المناطق الشمالية من السودان ، تكون وحدة حضارية وعنصرية ، وان الشعوب التى تقطن فى السودان قامت بدور هام فى بناء الحضارة فى وادى النيل ولا ننسى أن النوبة فى العصور الوسطى كانت تضم مملكة مسيحية زاهرة ظلت قائمة فيما بين عامى ٦٠٠ و ١٥٢٥ ميلادية وكانت تستخدم الابجدية الاغريقية .

ويخشى « فيركوتز » من أثر السد العالى على اثار النوبة العليا فى السودان اكثر من خشيته على اثار النوبة السفلى فى مصر ، لان النوبة السفلى كانت موضع اهتمام الاثريين منذ فترة طويلة ، ولذلك فقد درست دراسة أثرية طيبة ، وذلك على عكس النوبة العليا .

يضاف الى ذلك أن ما بذلته الحكومتان المصرية والسودانية من

جهود لتسجيل الاثار ليست الا جهودا محدودة ، وأن العراقيل كثيرة في طريق الانتقال بين النوبة العليا والنوبة السفلى ، وهي عراقيل مازالت قائمة حتى أمام الهيئات الاثرية الاجنبية التى توافدت على المنطقة استجابة لنداء منظمة اليونسكو .

وقد اتجهت الحكومة المصرية أخيرا الى تشجيع البحث الاثرى في منطقة النوبة ، وذلك بأن تعهدت بالسماح للباحثين بأن يقوموا بعد ذلك بالبحث الاثرى فى مصر نفسها كما وعدتهم بهدايا أثرية نفيسة .

أما وزير المعارف السودانى فقد صرح بأن بلاده تمنح الباحث الاثرى نصف ما يكتشف من قطع أثرية ، وأبدى اسفه على ان السودان ليس لديه من الكنوز الاثرية ما لدى مصر ، ومن ثم لايستطيع أن يهدى أية هدايا أثرية لرجال البعثات .

وقال وزير المعارف السودانى : ان النوبة السفلى اذا كانت قدحظيت بنصيب كبير من جهود الاثريين فان النوبة العليا لاتزال كنزا اثريا مغلقا، ولعل هذا وحده يكون حافزا قويا للمهتمين بالآثار فى العالم أجمع على المبادرة بالقدوم لمنطقة النوبة العليا لدراسة آثارها وتسجيلها ، قبل أن تغمر المياه المنطقة كلها .

ولا يفوتنى أن اشير الى أن الباحثين عن الاثار من الاجانب يودون الحصول على مقابل لما ينفقونه من أموال . وقد تسفر اعمال الحفائر التى يقومون بها فى النوبة عن خيبة أمل ، واذن فعلى الحكومة المصرية أن تقدم لهم بعض الفائض لديها من اثارها أما السودان فليس لديه ما يقدمه.

لقد تلقيت من مدير الحفائر السودانية قائمة بالمناطق الاثرية التى سوف تغمرها مياه السد العالى فى النوبة العليا ، ولقد قرأت هذه القائمة ففزعت ، اذ أحصيت بها أكثر من مائة منطقة من مناطق البحث الاثرى تضم آثارا قيمة من العهد المسيحى وعصر الدولة الوسطى فى النوبة .

فى الوقت الذى كان السومريون يضعون فيه اسس الحضـــارة البابلية وينقش فيه الصينيون الزخارف على الخزف كان هناك فرع من الجنس الاسمر يضع اسس الحضارة المصرية التى امتدت حقبا طويلة على مدى العصور • أما ما يربط تلك الحضارات الشرقية العريقة من وشائج فلا يزال سرا مطويا فى سجل التاريخ • والذى يهمنا الان هو أن هؤلاء المصريين الذين عاشـــوا فى عصر ما قبل الاسرات قد نقلوا فن صـناعة الخزف عن جنوب الشلال ، ولكنهم بعد ان ارتقوا فى مدارج المدنية لم يعيدوا الى تلك المناطق العليا للنيل ما قدمته لهم من فنون الحضارة ، ومن ثم بدأ الشعبان اللذان يقطن أحدهما فى شمال الشلال والاخر فى جنوبه يفترقان فى المستوى الحضارى •

ويبدو أن مرجع ذلك لا يقتصر على وجود الشـــلال وحده ، فهو حاجز ضئيل لايحول دون امتزاج الحضارتين ، ولكن هناك عنصرا آخر أدى الى عدم هذا الامتزاج ، وهو أن الاراضى فى جنوب الشلال أرض صخرية وعرة يغشاها جو جاف شديد القسوة ،فجعل الاتصال صعبا جدا بين مصر وبلاد « كوش » ، ولم تحاول الشعوب فى ذلك العصرالتيوليتى (الحجرى الاخير) أن تتحدى الطبيعة كما نتحداها نحن اليوم ، فتدفع برجالها وتجارتها الى اقاصى الارض •

ولقد أثبت « ريزنر » وغيره من الاثريين الذين قاموا بمسح المنطقة أثريا قبل التعلية الاولى لخزان أسوان عام ١٩٠٧ أن الخزف المصرى ذا الزخارف والنقوش لم يكن لوجوده أثر فيما وراء الشلال • ولـــكن الاثريين اكتشفوا بعد هذا التاريخ وجود علاقات تجارية بين فرع من الجنس الاسمر فى النوبة وبين الاسرة الاولى المصرية ، ودل هذا الكشف الاثرى على أن هؤلاء السمر كانوا تحت حكم ملك وانهم كانوا يستعملون أوانى من النحاس والخزف لابد أنهم استوردوها من مصر •

ولقد أطلق « ريزنر » على هؤلاء السمر اسم « مجموعة أ » لانها

لم تخلف وراءها كتابة ، فلم يعرف اسمها ، ويبدو أن هذا العنصر الاسمر قد وصل الى النوبة فى نحو سنة ٣١٠٠ قبل الميلاد ، ولكن أحدا لايعرف حتى اليوم من أين أتى هذاالعنصر وان تكن الكشوف الاثرية قد دلت على أنه قريب الصلة جدا بسكان مصر فى عصر ما قبـــل الاسرات ؟ ، وكانوا يدفنون موتاهم فى قبور مستطيلة أو بيضاوية وكانت الجثة توضع بطريقة مماثلة لما كان متبعا فى عصر ما قبل الاسرات فى مصر •

ويقول الاستاذ « (ركل » : ان « مجموعة أ » السمراء هذه ، وكذلك سكان مصر قبـــل عصر الاسرات ينحدرون من أصـــــل واحد ، وأن أجدادهم قدموا من مكان ما فى شرقى الســـــودان على خط عرض الخرطوم •

ولما أصبح المصريون مجتمعا منتظما تحت حكم الاسرات الملكيـة الحاكمة ، اخذت رغبة الملوك تشتد فى الحصول على العاج والنســـانيس والاخشاب ذات الرائحة الزكية ، وهذه كلها لاتوجـــد الا فى أقاصى الجنوب ، وكانت النوبة هى الطريق الى بلاد « كوش » ولذلك عبرت بلاد النوبة البعثات التجارية ، التى أرسلها الفراعنة الى كوش •

ويقول « ريزنر » : ان هذه البعثات التجارية ظلت بعثات سلميـــة طول عصر المملكة القديمة فى مصر ، وأن علاقاتها مع الزعماء المحليين كانت ودية ، وانها لم تحمل من السلاح الا ما يكفى الدفاع عن النفس •

وعلى الرغم من أن هذه البعثات التجارية كانت بعثات سلمية فانها فى عهدها الاول لم تخل من حوادث مؤلمة ، وكان الفراعنة يضــطرون احيانا لارسال حملات تأديبية الى الجنوب ، ويفرضـــون على المعـتدين هناك غرامة فادحة وهى عبارة عن عدد من الرقيق أو الماشية •

وعلى مسافة تبعد عن جنوب وادى حلفا بأميال قليلة منطقة صخرية صغيرة تعرف باسم « جبل الشيخ سليمان » ، وعلى قطعة من صـــخورها اكتشف البروفيسور (آركل) رســـما عن احــــدى غزوات الملك (جير) ثالث ملوك الاسرة الاولى ، لقد كانت غزوته هذه لبلاد النــوبة

بين أسوان ووادى حلفا ، وفى الصورة رمز عن انتصاره فى هذه الغزوة وهو عبارة عن مركب مصرى من مراكب الاسرة الاولى يسير فوق جثث النوبيين وقد علق فى مقدمته زعماء النوبه .

ومنذ عدة سنوات اكتشف متحف « باليرمو » فى مدينة صقلية أن لديه قطعة من الحجر المنقوش من بقايا الدولة القديمة فى مصر ، وقد أطلق على هذا الحجر اسم « حجر باليرمو » وقد نقشت عليه اسماء بعض ملوك الاسرة الاولى واهم الحوادث التى وقعت فى عهدهم .

كذلك عثر على نقوش من عهد « سنفرو » أحـــد ملوك الاسرة الرابعة ، وقد كتب تحتها العبارة التالية : « ذلك هو عام تدمير بلاد السود ـ لقد أحضرنا سبعة آلاف أسير من الرجال والنساء ومائتى ألف رأس من الماشية والماعز والاغنام » .

ويبدو من ذلك أن حملة « ســـنفرو » التأديبية قد توغلت جنوبا حتى الشلال الرابع ، كما يبدو أنها وجهت الى الكوشيين ضربة عنيفـــة ظلت البلاد تئن منها طوال ثلثمائة عام .

والى الجنوب من قرية بيت الوالى . وعلى مسافة ثلاثين ميلا منهـا بقايا مدينة أثرية أطلق عليهـــا الاغريق اسم « بسيلكيس » وقد عثر « فيرث » قرب هذه المدينة حين قام بمسح أثرى للنوبة بين عامى ١٩٠٨ ، ١٩٠٩ على أسوار قلعة « ايكور » الاثرية . ويقدر « فيرث » أن الاسوار الخارجية للقلعة كانت قد اقيمت فى عهد الدولة الوسطى فى مصر ، أى فيما بين الاسرتين الثانية عشرة والسابعة عشرة ، أما المبانى الداخلية فهى من عهد الدولة القديمة ، ومن المحتمل ان قلعة « ايكور » قد اقيمت فى أثناء حكم الاسرة الثالثة أى قبل ميلاد المسيح بثلاثة آلاف عام .

ويبدو أنها لم تكن قلعة عسكرية وانما كانت محطة تجـــارية محصنة ، أى أنها أشبه بالمحطات التجارية التى أنشأها الامريكيون فى غربى الولايات المتحدة وشماليها منذ عهد ليس ببعيد ، أو انها أشبه بمراكز

التجارة وشراء الرقيق التى أقامها العرب على النيل الأبيض حتى منتصف القرن الماضى •

وكانت « ايكور » لا تزيد على أنها مخزن للبضائع ، وهذا يدلنا على أن النوبة السفلى كانت أضعف من أن تكون مصدر تهديد لمصر فى عصر خوفو وما بعده • والراجح أن النوبيين كانوا ، حتى ذلك الوقت ، يعيشون فى العصر الحجرى الاخير ، وأن المصريين كانوا ينظرون اليهم على أنهم همج محتقرون ، وهم بذلك يتجاهلون صلات الدم القديمة التى تربط الشعبين • أما السبب الذى دعا المصريين الى تحصين « الفانتين » فهو خوفهم من غارات « الكوشيين » الذين كانوا يقيمون فيما وراء النوبة السفلى • وهذا دليل على أن النوبة السفلى كانت منطقة حاجزة بين المصريين فى الشمال وأهل الجنوب الاقوياء ، ولهذا كان التقدم الحضارى فى هذه المنطقة مستحيلا •

لقد اتخذ المصريون النوبة السفلى طريقا للمواصلات التجارية والعسكرية وعثر فى مقبرة أحد النبلاء فى أسوان ، واسمه « حورى » على صورة للقائد المصرى « خنوم حوتب » وقد كتب تحتها أن « خنوم حوتب » ذهب الى « كوش » احدى عشرة مرة • وأنه فى حكم الملك « آسا » ذهب حامل أختام الملك الى الجنوب وأحضر قزما ليرقص أمام الملك ويقوم بتسليته •

كذلك يشير ما سجله التاريخ الى أن المصريين أرسلوا بعثات الى بلاد « بونت » التى عند بوغاز باب المندب الحالى • ومن المحتمل أن أجداد المصريين عبروا البحر الاحمر فى هذه المنطقة الضيقة بين آسيا وافريقية منتقلين من جزيرة العرب الى الصومال عن طريق جزيرة « بريم » •

وأنباء أول بعثة مصرية الى « بونت » عن طريق البحر الاحمر قد عرفت من نقوش « حجر باليرمو » السالف الذكر ، وهذه البعثة الاولى تمت فى عهد الملك « ساحورع » من ملوك الاسرة الخامسة ، وأن البعثة جلبت معها من « بونت » المرمر ، وسبائك الذهب والفضة ، والاخشاب •

وفى مواجهة جزيرة « حيسا » على الشاطىء الشرقى للنيل كتلة صخرية من الجرانيت حفر عليها اسم الملك « مرنى رع » من ملوك الأسرة السادسة ، وقد استند الى صولجانه (١) وقد ظهر من خلفه ذيل الاسد وهذا هو شعار الملكية الوحيد • ومن وراء الملك يظهر الاله « خنوم » وأمامه يقف صف من زعماء النوبة ليقدموا الطاعة والولاء لفرعون مصر • وفى أعلى الصورة العبارة التالية : « ملك مصر السفلى والعليا « مرنى رع » المحبب الى « خنوم » سيد الشلال ـ السنة الخامسة ـ الشهر الثامن من الفصل الثالث يوم ٢٨ » •

وهذا يوافق عام ٢٢٨٠ قبل الميلاد •

هكذا قدم الملك بنفسه الى الجنوب وقد انبطح أمامه زعماء «مازوى» و « ايرنيت » و « واوت » لتقديم فروض الطاعة •

ومن الواضح أن ملوك الاسرة السادسة الفرعونية هم أول من بسط نفوذه على بلاد النوبة من ملوك مصر ، وأن ولاتهم كانوا يجولون فى أنحاء النوبة ويأخذون من خيراتها ما يريدون دون أن يمسهم أحد بسوء ومن بين هؤلاء « أونى » أحد ولاة الملك « مرنى رع » على المناطق الجنوبية ، فقد عهد اليه الملك بالتوجه الى محاجر الجرانيت عند الشلال الأول للحصول على أحجار لبناء الهرم الملكى فى سقارة ، ولاتزال المحاجر قائمة وما زال الهرم قائما حتى اليوم • وفى القرن الماضى عثر المسيو « ماريت » ، المدير السابق لمصلحة الآثار المصرية ، على مقبرة « أونى » فى أبيدوس (العرابة المدفونة) وقد كتب على المقبرة ما يلى : حينما كنت منوطا بخدمة كرسى العرش وحاملا « لصندل » مولاى العظيم « مرنى رع » الخالد ، ملك مصر السفلى والعليا جعلنى نبيلا وحاكما للجنوب ، لانى كنت موضع ثقة جلالته وموضع رضا جلالة الملكة • وهكذا أحبنى جلالته •

ويقول « أونى » : ان الملك أرسله الى « الفانتين » لاستحضار

---

(١) الصولجان : عصا خاصة بالملك • تكتب فى رأسها عبارات ورموز له •

الجرانيت اللازم لبناء هرمه وهرم الملكة ، وأن بعثته كانت من تسعة مراكب للبضائع والامتعة ومركب حربي واحد ، ولم يسبق لاى فرعون أن أرسل الى « الفانتين » ومحاجر « أبهيت » مركبا حربيا واحدا • ومعنى هذا أن الجنوب فى عهد « مرنى رع » كان يقدم الولاء المطلق لفرعون مصر •

ويستطرد « أونى » فى سرد القصة فيقول : بعثنى مولاى العظيم « مرنى رع » لحفر خمس قنوات وصنع سبعة مراكب من خشب اللبخ فى « واوات » ، وأقبل زعماء ايرثيت وواوات ويام ومازوى ، يجرون الاخشاب بأنفسهم ، ولقد استطعت انجاز عملى فى عام واحد •

أنا « أونى » حاكم الجنوب ومحبوب « أوزوريس » •

أما التابوت الذى أطلق عليه اسم « صندوق الاحياء » والذى صنعه « أونى » لمولاه « مرنى رع » فقد عثر عليه المسيو « ماريت » فى هرم سقارة عام ١٨٨٠ • وقد عبثت به يد لصوص الآثار ، ووجدت مومياء الملكة وقد فكت عنها أربطتها ولكنها فى حالة جيدة ، وعثر بجانب المومياء على خصلة من شعرها ، وهى الآن فى المتحف المصرى •

ولقد دأب المصريون فيما بين الاسرتين الرابعة والسادسة على استغلال المحاجر النوبية من غير أن يعترضهم أحد ، وعلى مقربة من أبى سمبل محجر من الديوريت منقوش على بعض أحجاره اسم « خوفو » بانى الهرم الاكبر •

وفى أسوان « مقابر النبلاء » ويبلغ عددها سبع عشرة مقبرة وقد اكتشفها الجنرال « جرنفيل ، ووليس بدج » بين عامى ١٨٨٥ و ١٨٨٦، وتمد هذه المقابر مصدرا غنيا بالمعلومات عن العلاقات بين المصريين وشعوب الجنوب ، ومن بين هؤلاء النبلاء « حارخوف » وكان حاكما على الجنوب مثل « أونى » ويصف نفسه بأنه حامل ختم الملك وصفيه ، وأنه كاهن ورائد قافلة • وقد سجل « حارخوف » على قبره نداء الى الاحياء جاء فيه : يا معشر الاحياء ، يا من تمرون بقبرى سواء الى أعلى النهر أو الى

أسفله ، قولوا دائما « ألف رغيف من الخبز ، وألف قدح من الخمر لصاحب هذه المقبرة » اننى سوف أطلب لكم الرحمة فى العالم الآخر • اننى روح طيبة وكاهن يقوم بالطقوس وممن ينطق بالحكمة » •

وقد أرسل الملك « مرنى رع » هذا الوالى أدى « حارخوف » الى بلاد « يام » فى الجنوب فعاد ومعه ثلاثمائة حمار محملة بالبخور والعاج والحبوب وجلود الفهود والابنوس ، وحين مر بالنوبة العليا قدم له زعماؤها كثيرا من الماشية ، ويحدثنا « حارخوف » فيقول : ان الملك أبدى سروره بعودته فأرسل لاستقباله « المشرف على الحمام » ومعه قدر كبير من خمر البلح والفطائر والخبز والنبيذ •

أما أعظم مغامرات « حارخوف » فقد تمت فى خلال رحلته الرابعة الى الجنوب فى عهد الملك « ببيى الثانى » آخر ملوك الاسرة السادسة ، وفى أثناء الرحلة تلقى من الفرعون رسالة ملكية جعلته يزهو بها ويفاخر ، حتى انه طلب أن تكتب صورة منها فوق مقبرته •

ويعلق الشروفيسور « آركل » على رحلة « حارخوف » الى الجنوب فيقول : انه لم يسر بمحاذاة النيل وانما اتخذ طريق القوافل التى تمر بواحتى دنقل وسليمة ، ثم تؤدى الى المنطقة التى يطلق عليها الآن اسم دارفور ، والتى هى على خمسمائة ميل غرب النيل ، وأنه لابد أن يكون قد وصل الى موقع مدينة الفاشر الحالية ، ومن هناك استطاع أن يتبادل السلع مع القادمين من مناطق الغابات جنوبا حتى اقليم الكونغو ، وبذلك استطاعت مصر الحصول على الابنوس والعاج وغيرها من المحصولات الاستوائية •

« ٣ »

كانت رحلة « حارخوف » الى الجنوب دليلا على أن النيل لم يكن الطريق الوحيد بين مصر وبين الجنوب ، وهذا يرجع الى أن النيل فى منطقة النوبة حتى الخرطوم تعترضه ستة شلالات ، أو هى على الاصح ستة جنادل ، اذ أنها جزر متناثرة من الصخر فى مجرى النهر ، ولم

يستطع الفراعنة اجتيازها فى قوافل تجارية نهرية عبر النيل ، لان الصخور وقوة التيار تحطم أمتن السفن ، ومع ذلك فقد وصلوا حتى الشلال الرابع • وكانت حدود بلادهم من جهة الجنوب تنتهى عند أسوان وذلك فى أيام ضعفهم ، أما فى أيام قوتهم وبأسهم فانها تمتد جنوبا حتى الشلال الثانى •

وكانوا يستخدمون النيل فى الملاحة من الدلتا الى باب الفانتين (١) وبعد ذلك تنقل بالبر فى قوافل تسير بمحاذاة النيل ، أو تسير فى الصحراء نحو الجنوب الغربى — الى بلاد « يام » ، أو تتجه الى الصحراء الشرقية نحو مناجم الذهب • وكانت القوافل عرضة لغارات القبائل التى كانت تقيم فى هذه المناطق المجهولة ، مما اضطر الفراعنة الى أن يبعثوا الى هناك حملات تأديبية بين حين وحين •

ومن أشهر هذه الحملات حملة النيل « بيبى نخت » فى عهد الفرعون « بيبى الثانى » فقد استطاع « بيبى نخت » أن يخضع القبائل المغيرة اخضاعا تاما وأن يحضر زعماءها الى بلاط الملك فى مصر •

ويقص علينا « بيبى نخت » أن الفرعون أرسله فى حملة أخرى الى بلاد « العرب » حيث اتجه نحو خليج السويس لاحضار جثة «انكحبيت» الذى كان يبنى سفينة لبلاد « بونت » وقتله العرب ، سكان الرمال ، هو ومن معه من الجند ، ومن هذه القصة يتضح أنه كانت هناك اتصالات منتظمة بين مصر وبين بلاد بونت « الصومال » وأن المصريين أتقنوا فن الملاحة ، وان لم يتجهوا كثيرا الى البحر ، ذلك بأنهم كانوا يجدون ما يطلبون فى بلاد كوش وبلاد يام •

ان الحاجة هى التى تدفع بالمغامرين والمكتشفين الى ارتياد آفاق جديدة ، ولقد كان المصريون فى سعة أغنتهم عن هذه المغامرات الكشفية ، واذا كنا نحن الاوربيين قد قمنا بمثل هذه المغامرات ووصلنا الى منابع

---

(١) أسوان الآن •

النيل التى لم يصل اليها المصريون فان ذلك لا يحمل معنى التفوق اذ أن الدافع الى ذلك هو الحاجة •

من أجل ذلك لم يفكر المصريون فى اكتشاف منابع النيل ، واكتفوا بأنه « هبة من الله » •

ومقبرة « بيبى نخت » بين المقابر القائمة فى المنطقة المرتفعة المقابلة لاسوان وقد عثر البروفيسور « ايدل » الالمانى فى شتاء عام ١٩٦١ على مقبرة جديدة لم تعرف قيمتها الاثرية حتى الآن •

لقد كان « بيبى نخت » من آخر نبلاء أسوان ، اذ انهارت بموت الملك ، فى نحو عام ٢١٤٠ قبل الميلاد ، السلطة المركزية فى مصر ، وكان هذا ايذانا بنهاية الدولة القديمة وبداية العصر الوسط • وفى ذلك العصر مزقت مصر الخلافات الداخلية وأحالت قوتها الى ضعف ، وكان كل أمير يجد فى نفسه شيئا من القوة ، يميل الى السيطرة على غيره •

وفى أثناء ضعف مصر كان سكان الجنوب ، وهم الذين اطلقنا عليهم اسم « المجموعة أ » قد انتهى أمرهم ولم تقم لهم قائمة ، غير أنه قد حل محلهم عنصر جديد أطلق عليه اسم « المجموعة ج » وهى مجموعة ترتبط من الناحية العنصرية « بالمجموعة أ » والكل من جنس البحر الابيض ، الأسمر • ويرى البروفيسور « آركل » أنه من المحتمل أن « مجموعة ج » كانت فى أقصى الجنوب ، قبل أن تنتقل الى النوبة ، وأنها لم تكن تقطن شواطىء النيل ، وانما كانت منتشرة على جانبيه الشرقى والغربى •

وكان سكان النوبة يربون الماشية ، واذا مات أحدهم دفنوا حول مقبرته رءوس الماشية التى تذبح فى جنازته ، والمقبرة عبارة عن سور دائرى من الاحجار • وفى وسطها حفرة صغيرة توضع فيها الجثة ثم يملأ وسط الدائرة الحجرية بالرمال فتبدو كأنها كعكة ضخمة ، وتطورت المقبرة بعد ذلك ، اذ بنيت لدفن الجثة حجرة ، ثم أضيف الى الحجرة معبد صغير وذلك من الناحية الشرقية لتقديم القربان • ولا يزال مثل هذا المعبد قائما

فى النوبة حتى اليوم ، ولكن بصورة أخرى، اذ يلاحظ أن بمقابر النوبيين المسلمين مقصورة صغيرة بها قدور من الماء ، ومن المؤكد أن الماء خير قربان يقدم فى هذه البقاع الظامئة أما الفقراء الذين لا يستطيعون بناء مثل هذه المقصورة فانهم يضعون جرار الماء بجانب القبر (١) .

ولقد عثر بجانب مقابر « المجموعة ج » ، على أعمدة منصوبة وقد نقشت فوقها رسوم حيوانية ، ومثل هذا النوع من الاعمدة وجد أيضا فى مقابر موغلة غربا فى الصحراء الكبرى، وهذا يوحى بأن هذه المجموعة العنصرية وفدت من الغرب ، أو أنها انتقلت غربا عبر الصحراء ومن ثم تعتبر افريقية وحدة أثرية ، ويمكن القول بأن النوبة هى مفتاح هذه الوحدة .

ومن المرجح أن تكون هذه المجموعة العنصرية قد اضطرت الى الانتقال الى وادى النيل بعد ماجفت مراعيها وأصبحت أرضها صحراء قاحلة ، وقد تكون سلالة من « التيمة » الذين يروى لنا النبيل المصرى « حارخوف » أن زعيم « اليام » ذهب لتأديبهم ، ويقول البروفيسور « آركل » ان قبائل « التاما » لاتزال تعيش فى هذه المناطق ، وكذلك يقول آركل : ان قبائل « ايرثيت » ، التى ذهب النبيل « بيبى نخت» لتأديبها ذات شبه كبير بقبائل « الاورتى » التى يتكلم أفرادها بلهجة نوبية حتى اليوم .

ولقد أتاح ضعف مصر « للمجموعة ج » دخول النوبة ، واذ كانت هذه المجموعة من البدو الرحل فقد عمدت الى الاستقرار فى وادى النيل .

ويحدثنا الجغرافى « سترابون » فى كتابه « الجغرافيا » الذى صدر قبل ميلاد المسيح ببضع سنوات عن « الاثيوبيين » فيقول : انهم يعيشون عيشة قاسية وأنهم عراة رحل لا يستقرون فى مكان واحد .

---

(١) مما تدعو اليه السنة فى الاسلام غرس الاشجار أمام القبور ونثر الماء حولها كما زارها احد .

ولكن « سترابون » لم يتجاوز أسوان فى رحلته نحو الجنوب ، وربما كان يصف « المرويين » نقلا عن الرواة • ومع ذلك فالمشـاهد أن كل الشعوب التى توافدت على وادى النيل تحولت من البداوة الى الحضارة ، يستوى فى ذلك المصريون والعـرب • ولقـد تسللت بعض عناصر « المجموعة ج » الى وادى النيل شمال الشلال الاول • ويقول البروفيسور « يونكر » النمساوى : انه عثر على مقبرة لهؤلاء فى « القوبانية » منذ خمسين عاما ، وربما كان هذا أقصى مكان بلغوه شـمالا حيث أوقف تقدمهم أمراء طيبة فى أثناء حروبهم مع خصومهم فى الشمال • ولما انتصر امراء طيبة أسسوا الاسرة الحادية عشرة سنة ٢١٥٠ قبل الميلاد ، ومن ثم بدأت الدولة الوسطى • ومنذ قيام هذه الدولة أخذ احتلال مصر للنوبة طابعا عسكريا ، واستطاع أن يمد الحدود المصرية جنوبا حتى الشـلال الثانى • وقد عثر فى « جبل الشيخ سليمان » على نقوش وكتابة تدل على أن العمال المصريين كانوا يقومون بأعمالهم العادية فى مناطق تمتد جنوبا حتى الشلال الثانى •

يقول البروفيسور « ريزنر » : ان الرسوم التى اكتشفهـا تدل على أن أهل النوبة السفلى كانوا يعيشون فى رخاء تحت الاحتـلال العسكرى الفرعونى لبلادهم ، وان حياتهم لم تكن تفترق عن حياة النوبيين الحاليين، فقد كانوا يزرعون النخيل ويصنعون السلال ويقومون بخدمات النقـل النهرى • ويضيف « ريزنر » أن ثقافتهم لم تكن تتعدى ثقـافة العصر الحجرى الاخير ، وأنهم لم يستطيعوا الافادة من الحضارة المصرية التى قامت فى شمال بلادهم ، وما يقوله « ريزنر » قد يكون فيـه شىء من التجنى على هؤلاء القوم ، وأغلب الظن أنهم انطووا على أنفسـهم اعتزازا بتراثهم ، ورفضوا فى اصرار أن يستبدلوا الفن المصرى الرفيع بفنهـم التقليدى •

ومهما يكن من أمر فانحفائر « القوبانية » تدلعلى أن « المجموعةج» من سكان النوبة كان قد توافد أفرادها على النوبة قبل أن تقـوم الدولة الوسطى فى مصر باحتلال هذه البلاد • ويقدم لنا « ولس بدج » نقوشا

من عهد الفرعون « منتوحتب » أحد ملوك الاسرة الحادية عشرة ، وهى تمثله واقفا فوق خمس عشرة قوسا تمثل خمس عشرة قبيلة همجية ، أى ان الفرعون أخضع كل هذه القبائل لسلطانه ، كما أن « امنمحعت الاول » أول ملوك الاسرة الثانية عشرة ذهب الى النوبة لتأديب « الواوات » واتم ابنه « سنوسرت الاول » احتلال البلاد واقامة عدد كبير من الحصون .

والذى يستخلص من ذلك كله أن سكان النوبة كرهوا أن تستغل خيرات بلادهم سلطة « امبريالية » كسلطة فرعون مصر ، فعمــــدوا الى السلب والقرصنة ، مما اضطر المصريين الى اقامة الحصون والقـــلاع ، لا لحماية أهل النوبة وانما لوقاية الحامية المصرية والتجارة المصرية من غاراتهم .

ومعظم ما حصلنا عليه من معلومات عن « المجموعة ج » كان مصدره تلك المقابر التى اكتشفها « شتيندورف » عام ١٩١٢ والتى أتم حفائرها عام ١٩٣٠ . وهذه المقابر تكون حلقة فى سلسلة مقابر قرب عنيبة ، وتمتد من الدولة الوسطى فى مصر حتى العصر الرومانى . كمـــا أن الآثار التى خلفتها « المجموعة ج » موزعة بين « دبيرة شرق » و « كوشة » .

ونحن نرجو أن تتاح للاثريين الفرصة لدراسة هذه المناطق قبل أن تغمرها مياه السد العالى .

وفيما وراء منطقة الفيضان جنوبا بقايا أوان خزفية ونقـــوش على الصخر تمثل الماشية فى وضعها الطبيعى ، ويعتقد البروفيسور « ريزنر » أن التنقيب فى النوبة السفلى قد يوضح لنا آخر انتشار للجنس النوبى فى الدولة المصرية الوسطى والعلاقات العنصرية والحضارية لهؤلاء النوبيين .. وقد استطاع « ريزنر » عام ١٩١٢ أن يمد منطقة الحفائر حتى مديرية دنقلة فى السودان على مقربة من الشلال الثالث ، ولا تزال القلاع الاثرية فى هذه المنطقة قائمة ، كما أنها ما زالت فى حالة جيدة وان كان بعضها قد تآكل بفعل الرياح أو طمرته الرمال المتحركة ، ومن الصعب انقاذ هذه

الآثار من مياه السد العالى ، لانها مبنية من اللبن ، ولذلك لا يمكن نقلهـــا الى مكان آخر •

وقد أقيمت فى المنطقة التى بين الشلالين الاول والثـــانى حصون « كوبان » و « عنيبة » و « فرس » لرعاية مصالح الجماعات المستقرة فى المناطق الزراعية التى تضمها هذه المنطقة ، ولحماية المخـــازن والموانى والتجارة النهرية من أية غارة تقوم بها « مجموعة ج » •

أما فى أعالى النهر ، فيما وراء وادى حلفا ، فقد أقيمت سلسلة من الحصون على الصخور والجزر الصغيرة لحماية منطقة الشلال الثانى حتى قلعة « سمنة » التى جعلتها الدولة الوسطى آخر حدودها الجنوبية •

ان هذا النظام الدفاعى كان من غير شك ، وقاية طيبة للسفن الصغيرة التى تحمل البضائع التى تنقل اليها من السفن الكبرى فى تلك المنطقة التى لا يصلح فيها مجرى النيل للملاحة ، كما أنه كان حمـــاية لطرق القوافل على جانبى النهر ، وأخيرا فقد كان أقصى مراكز الدفاع من جهة الحدود الجنوبية • ولم يكن ما أنفق من أموال كثـــيرة على انشـــاء هذه الحصون وصيانتها مقصودا به ايجاد نظام دفاعى عن الحدود وكفى ، فقد كان من المستطاع انشاء هذا النظام الدفاعى ، بحيث لا يتطلب الا نفقات قليلة ، وذلك عند باب « الفانتين » ، اذ أن النوبةالسفلى لم تكن من الأهمية بحيث تتحمل مصر كل هذه النفقات فى سبيل ضمها الى ممتلكاتها •

والواقع أن السبب الحقيقى فى عصر مصر الفرعونية ، أى منـــذ أربعة آلاف عام ، هو السبب الذى يدفع الدول الآن الى انفـــاق الاموال والقيام بالمغامرات ، انه التبادل التجارى ورغبة المصريين فى الحصول على العاج والاخشاب الثمينة وبقية المنتجات المهمة فى بلاد الجنوب •

ولقد كان الحصول على هذه المنتجات يستحق حماية الطريق الى الجنوب واستخدام القوة فى ذلك ان لزم الامر •

وفى صدر الدولة الوسطى أهملت منطقة النوبة الســـفلى اهمالا تاما ، ولم يهتم المصريون بحصونها وقلاعها ، وظلت الحال كذلك حتى جلس

على عرش مصر الملك « سنوسرت الاول » وذلك فى نحـــو عام ١٩٧٠ قبل الميلاد فأعاد بناء حصن « ايكور » ، وقد أحسن اختيار موقعه الجديد فأقيم عند المكان الذى يبدأ فيه « وادى العلاقى » اذ يتجه جنــوبا بشرق نحو مناجم الذهب فى الصحراء وتتفرع طرق القوافل الى شرقى السودان وما وراءه الى بلاد بونت (الصومال) وأقام « سنوسرت الأول » حصـــنا قويا فى مواجهة « ايكور » فى « كوبان » لحماية المخازن هناك .

ومنذ خمسين عاما كتب ويجول Weigall وصفا لهذا الحصن فقال : انه يترك فى النفس أثرا قويا ، كما أنه يدل على مدى نشــــاط قدماء المصريين فى هذه البـــلاد . وقد ظل هذا الحصن قائمـــا طوال ثمانمائة عام ثم عبثت به يد الزمن كما عبثت به يد الانسان . وحين زارته « أميليا ادواردز » عام ١٨٧٣ وجدت الفـــلاحين يستخدمونه كمستودع للسماد فان ما فيه من النترات يمنح الأرض الخصب .

ولنتحدث الآن عن المنطقة الاثرية التى تجـــرى فيهـــا الحفائر الروسية : فعلى مسافة ١٣٢ ميلا على الشاطىء الغربى للنيـــل فيما وراء خزان أسوان بقايا مدينة أثرية اسمها « معام » وهى التى تسمى اليــــوم عنيبة وفى هذه المدينة عثر « شتيندورف » على مقابر « لمجموعة ج » عام ١٩١٢ ، وفيها عثر أيضا على بقايا حصن أقامه « سنوسرت الاول » وليس هناك شك فى أنه كان حصنا ضخما مثل حصن ، « كويان » وأنه شـــيد بقصد اخضاع أهالى المنطقة لحكم فرعون .

ولقد بلغت الحماسة بالرحالة « سانت جون » حدا كبـــيرا حينما شاهد سلسلة من الحصون تبـــدأ عند « فرس » على الحـــدود المصرية السودانية . وتقوم الآن بعثة معهد « ميكولوفسكى » البولندية بالتنقيب فى المنطقة عن الآثار التى تضمها المنطقة من خمسة عشر قرنا قبل الميلاد حتى الفتح العربى وسوف نعرف من نتيجة كشوف هـــذه البعثة : هل كانت « فرس » هى نقطة الحدود بين مصر والنوبة أو أنها لم تكن كذلك ؟ .

والحصن التالى بعد « فرس » هو حصن « صد الميجـــو » وهؤلاء

الميجو رجال قبيلة مشاكسة فى الصحراء الشرقية ، وقد يكونون أجداد « البحارة » الذين يعيشون الآن فى المنطقة •

أما حصن « بوهن » الذى فى أعلى النهر ، فيما وراء وادى حلفا فهو أحسن الحصون المعروفة ، وذلك بفضل التنقيب الدقيق الذى قام به البروفيسور « ايمرى » بتكليف من جمعيـــة التنقيب المصرية • ومن المشاهد الآن أن البواخر النيلية بين مصر والسودان تحمل عددا كبيرا من السائحين وكلهم قادمون لمشاهدة آثار المنطقة قبل أن يغمرها ماء الســـد العالى ، وأكثر ما يجذب السائح شيئان هما « ابو سمبل » و « بوهن » •

وتضم « بوهن » مدينة وقلعة ، والقلعة هى الأولى فى سلســـلة من القلاع تشرف على الشلال الثانى مسافة ستين ميلا حتى تبلغ « سمنة » وهى آخر الحصون جنوبا فى الدولة الوسطى •

وفى السنة الثامنة عشرة من حكم الملك « سنوسرت الاول » أقام أحد رجاله وهو « منتوحتب » نصبا حجريا نقشت عليه صـــورة الاله « منتو » واقفا فى مواجهة الملك وهو يقدم له النوبة كلها فى شكل أسير موثق يمثل كل مدينة من مدنها •

وأول كشف علمى أجرى فى « بوهن » تم على أيدى « راندال ماك ايفور » و « ليونارد وولى » وكان ذلك بتكليف من بعثـــة ايكلى كوكس عام ١٩١٠ • وبعد ذلك شرعت جمعية التنقيب فى مصر فى العمل تحت رياســـة البروفيسور « ايمرى » عام ١٩٥٧ ويرى « ايمرى » أن تاريخ تشييد حصن « بوهن » يرجع الى عام ١٩٩١ قبل الميلاد ، وكان ذلك فى نحو بداية حكم الاسرة الثانية عشرة ويقول « ايمرى » : ان وســـائل الحصن الدفاعية كانت من القوة بحيث تستطيع أن تصب سيلا من السهام ومقذوفات المقاليع على المهاجم طوال سيره لمهاجمة الحصن ، فاذا ما بلغ مشـــارف الحصن فهناك الحامية الأولى خـــارج الخندق ، ومن ورائه الاستحكامات والمتاريس • واذا فرض أن المهاجم الطائش اســـتطاع اجتياز الاستحكامات فهناك ممر ضيق فوقه أسوار يبلغ ارتفاعهـــا ثلاثين

قدما ، واذا أراد أن يستولى على الحصن كان عليـــه أن يتســـلق هذه الاسوار ، أو أن يخترقها وهى فى الوقت نفســـه تنتهى من أعلى بأبراج قوية •

وقد علق على ذلك البروفيسور « بارملى » أستاذ الآثار المصرية فى جامعة كمبردج حين زار النوبة عام ١٩٦٠ قائلا : ان هذا الحصن القوى يدل عـلى أن الفراعنـــة ـ وان كانوا قد اســـتهانوا بالجنوبيين ـ كانوا يخشونهم ، ولو كان العدو هينا ما أقيمت كل هذه الاستحكامات المتينة •

وبينما كان البروفيسور « ايمرى » يعمل فى الحفائر عام ١٩٥٩ عثر على هيكل حصان راقد على افريز الاستحكامات التى أقامتهـــا الدولة الوسطى ، تحت كومة من رماد النار المتخلف من آثار احراق الحصن • وقد قدر المتحف البريطانى عمر هذا الرماد قائلا : ان الحريق حدث عام ١٦٧٠ قبل الميلاد • وهذا يتفق مع موعد غزو الهكسوس لمصر السفلى مما أدى الى اضعاف قوة مصر وهيأ الظروف أمام الجنوبيين للاستيلاء على حصن « بوهن » وغيره من الحصون • على أنه لم يكن للخيل أى أثر بمصر قبل عام ١٥٨٠ قبل الميلاد ، ومن ثم ندرك ما كان لها من أثر قوى فى نجاح حملة الهكسوس على مصر •

وكذلك وجه البروفيسور « ايمرى » عنايته لدراسة مدينة «بوهن» نفسها تحت الحاح مدير الآثار السودانية ، وذلك لانها من أولى البقاع التى سوف يغمرها ماء السد العالى •

ومما يدعو الى الدهشة أن « ايمرى » أوضـــح أن من بين ما عثر عليه فى هذه المدينة التاريخية وثائق لرجال المخابرات مدونة على ورق البردى منذ ٣٩٠٠ سنة • ويحاول المتحف البريطانى جمع بقايا هـــذه الوثائق ، اذ المعتقد أنها رسائل متبادلة بين حكام مصر وولاتهم فى النوبة • ومن يدرى ؟ فقد ينطوى تحت هذه الوثائق كثير من الاسرار ، ولهـذا ناشدت حكومة السودان هيئة اليونسكو أن تســـعى لدى الحـكومات

بوهن
جبل الشيخ سليمان
وادى حلفا
٤ م ٠
جبل عبد القادر
قور
جونارتى
بوهن
وادى حلفا
قور
مينارتى
دورجونارتى
الشلال الثانى
عبكه
ميرجبيسه
دابنارتى
جاعى
النوبة
مرشد
سكوت
صحراء
النوبة
شفلق
سراس
اوراناتى
قمه
سمنه

والمنظمات الدولية والهيئات العلميةفى مختلف البلاد لتمديد المساعدة لصيانة ، أو تسجيل ، هذه الآثار قبل أن يغمرها الماء الى الابد •

- ٤ -

لقد عثر كويبل J.E.Quibell ، وهو يقوم بالتنقيب عام ١٨٩٥ ، على مقبرة من الدولة الوسطى تحت معبد الرمسيوم ، وعلى وثيقة هامة من أوراق البردى تضم قائمة بأسماء الحصون التى أقامها الفراعنة فى بلاد النوبة • كان من بينها حصن « بوهن » يليه حصن « أيكن » على مسافة ثلاثة أميال جنوب بوهن • وهى على سفح جبل الشيخ سليمن • وفى المكان الذى حدده الاثريون لحصن « أيكن » القديم قرية « كور » الآن وقد يثبت البحث أن « كور » هى « أيكن » نفسها وأن الآثار كلها عبارة عن مخزن محصن وله ميناء ترسو عنده السفن الكبيرة ، لان « كور » قرب الشلال الثانى • واذن فالسفن الكبيرة كانت تفرغ حمولتها فى قوارب يجرها الرجال عبر الشلال مسافة مائتى ميل فيما وراء الحدود حتى « كرمة » وفى « كرمة » تتم عملية عكسية ، وهى أن بضائع الجنوب تشحن فى القوارب لتعود بها الى « أيكن » حيث تنقلها السفن الكبرى الى مصر السفلى •

واذا تحدثنا عن « ايكور » و « كور » فلا ننسى « مينارتى » « ودور جونارتى » وهى من بقايا الدولة الوسطى فى مصر • وعلى بعد منها « دابنارتى » ويقابلها على الضفة الأخرى للنيل حصن « ميرجيسة » وتقوم « ميرجيسة » على نتوء صخرى ، وهى حصن قوى فى موقع طبيعى منيع • هى وحصن « دابنارتى » الذى يقابلها على الضفة الثانية يستطيعان التحكم فى مجرى النيل تحكما تاما فى هذه البقعة ، ويحولان دون مرور التجارة •

وفيما بين الاسوار بقايا معبد حجرى عثر المسيو « هنرى ليونز » على اسم « سنوسرت الثالث » منقوشا عليه •

كذلك عثر « ريزنر » على عمود من الصخر نقش عليه اسم « رمسيس الاول من الاسرة التاسعة عشرة » •

ونستطيع أن نستنتج من كل ذلك أن « سنوسرت » هو الذى بنى المعبد والحصن ، وأن « رمسيس الاول » قام باصلاحه أو أجرى فيه بعض التعديلات • وقد عثر « ريزنر » على بعض الاختام الصلصالية وقد كتب عليها : « الاله الطيب ـ سيد الارضين ـ سنوسرت الثالث ـ ختم المخزن الكبير » •

ويقول أحد خبراء الآثار الموثوق بهم : ان هناك حصنا آخر من آثار الدولة الوسطى عند « جماعى » • و « جماعى » هذه فى رأس قائمة المناطق الاثرية المطلوب دراستها وتسجيلها ، لان فيها مجموعة من المقابر الأثرية التى تمتد حتى العصر المسيحى • وتبلغ المسافة بين هذا المكان وحصن « شلفق » نحو تسعة عشر ميلا ، وليس من المعقول أن يكون المهندسون العسكريون فى مصر الفرعونية قد تركوا هذه المسافة الواسعة من غير تحصين فتظل القوافل دون حماية لمسافة طويلة ، فالذى يستنتج من نظام اقامة الحصون هو أنها تقام بحيث يستطيع كل منها أن يتبادل الاشارات مع الحصن الذى يليه ، ليمكنه تقديم الامدادات اللازمة له عند الحاجة • ولا ندرى شيئا حتى الآن عن نظام الاشارة عند الفراعنة ، لكن الاعتقاد السائد أنه كان لديهم مثل هذا النظام ، وربما كانوا يستخدمون الاشارات الشمسية •

على أننا سوف نبحث الآن عن حصن ، أو محطة ، فيما بين «جماعى» و « شلفق » :

فى عام ١٩٠٠ كان ثلاثة من الاثريين الالمان وهم « بوركاردت » و « شيفر » و « شتيندورف » يرسمون الخرائب الباقية على جزيرة « أورانارتى » على مسافة أربعة أميال من « شلفق » وفى أثناء ذلك عثروا على عمود من الجرانيت هو صورة مطابقة لعمود آخر عثر عليه قبل ذلك الأثرى الألمانى « لبسيوس » فى حصن آخر • والشىء المهم فى هذا العمود

هو أنه وجد منقوشا عليه اسم « خسف يونيو » وهـــذا الاسم هو الاسم الذى وجد ضمن قائمة أسماء الحصون التى عثر عليها فوق احدى ورقات البردى فى الرمسيوم • ومن هنـــا أدرك « بوركاردت » وزملاؤه أن خرائب « آوراناراتى » ـ بقايا حصن بناه « سنوسرت الثالث » وهو الجـد الاكبر « لسنوسرت » الذى بنى حصن « بوهن » •

لقد كان منقوشـا على العمـــود الذى اكتشــــفه الاثرى الالمانى « لبسيوس » : « صد الترجلوديت » وقد كتب الجغرافى « سترابون » ان « الترجلوديت » و « البلمى » و « النوبا » و « الميجابارى » قبـــائل اثيوبية تقطن فيما وراء اسوان ، وهى قبائل رحالة قليلة العـــدد وليست ذات بأس فى الحرب ، كما يظن البعض ، ولكنها جماعات من قطاع الطرق تهاجم من ليست لديه وسائل دفاعية • كل هذه أدلة على أن « اوراناراتى » هى المكان الذى بنى فيه « سنوسرت الثالث » حصنه •

ويبدو لنا أن هذه القبائل النـــوبية ، أو الاثيوبية كما يقـــول « سترابون » • كانت مثيرة للاضطرابات مما اضـــطر الفراعنة الى بناء سلسلة من الحصون فى النوبة ، وانها فى ذلك كقبائل الباتان على الحدود الشمالية الغربية للهند ، فكثيرا ما أقلقت البريطانيين فى هذه المنطقة •

و « أوراناراتى » على مسافة قصيرة من قلعة « سمنة » عند الحدود بين مصر القديمة والنوبة • وهى حصن منيع يقول عنه « ريزنر » : انه لم يكن فى استطاعة القبائل النوبية مطلقا أن تستولى عليه بالقوة ، وعلى مسافة سبعة وثلاثين ميلا من وادى حلفا وبوهن تنتهى حدود الدولة الوسطى • وهنا يشق النهر مجرى ضيقا بين صخور « النيس » الصـــلبة ، حتى ان المجرى ليضيق الى أن يبلغ ١٣٠٠ قدم فقط • وعند هبوط النيل تســـد صخور « النيس » مجراه ولا تترك غير ممر مائى وسط المجرى لا يزيد عرضه على ١٣٠ قدما ، وهنا وجد الفراعنة الموقع المثالى لاقامة بوابة بين ملكهم وبين الجنوب وفى هذا المكان أنشأ « سنوسرت الثالث » أهم القلاع المصرية وهما قلعة « سمنة » على الشاطىء الغربى للنيل وقلعة « قمة » على الشاطئ الشرقى وهما معا تشرفان على النهر اشرافا كاملا •

. . . .

وفى قلعة سمنة معبدان يرجع تاريخهما الى ما قبل الدولة الوسطى ولكن أحدهما يقوم على الاساس الذى بناه « سنوسرت الثـــالث » وكان بناؤه للاحتفال بالانتصار على « الترجلوديت » وهم من القبائل الســـود (الاثيوبية) التى تقطن فى الجنوب ، وربما أراد بذلك أن يخلد ذكرى انتصار حملته المجيدة التى أرسلها لتأديب الاثيوبيين فى السنة السادسة عشرة من حكمه •

وقد خلد « سنوسرت » اصلاح احدى القنوات بالعبارة التالية :

« السنة الثامنة من حكم صاحب الجلالة ملك مصر العليا والسفلى سنوسرت الخالد لقد أمر جلالته بتجديد القناة ، وجعل اسمها « جميلة هى أعمال سنوسرت الخالد » وكان ذلك وقت أن صعد جلالته فى النيل لتأديب الكوشيين » •

وفى أربعينات القرن الحالى عثر الأثرى الالمانى « لبسيوس » عـلى عمودين فى « سمنة » ولهذين العمودين قيمة أثرية كبيرة لانهما يوضحان حدود الامبراطورية المصرية فى ذلك العهد واتجاهها الى تهدئة القبائل المقيمة فى الجنوب فالعمود الاول يقرر أن هذا المكان هو الحد الجنوبى للبلاد فى السنة الثامنة من حكم صاحب الجلالة « سنوسرت الثالث » وأنه لا ينبغى أن يقوم « النيهى » فى الجنوب باجتيازه برا أو عن طريق النهر وذلك باستثناء أولئك المرخص لهم فى الاتجار مع « أيكن » ويجب أن يلقى « النيهى » كل رعاية ومعاملة طيبة ، ولكن يجب ألا تنتقل سفنهـم الى ما بعد « سمنة » شمالا •

والعمود الآخر الذى عثر عليه « لبسيوس » فى « سمنة » لا يقل أهمية من الناحية التاريخية عن العمود الأول • ولقد وجد مكتوبا عـلى هذا العمود ما يلى :

« أنا الملك وأمرى مطاع »

« الفرار خلق الجبان ، وليس رجلا ذلك الذى يقبل الهزيمة على أرض الوطن ، ويسلم نفسه أسيرا للعدو » •

« هكذا يخسر « النيهى » ـ أى سكان الجنوب ـ على وجهه واذا ما هوجم فانه يتجنب مواجهة المهاجم ، واذا طورد ولى الادبار » •

« والنيهى لا يتحلى بالشجاعة ، فهو رعديد جبان ذليل ، هذا رأى جلالتى فى النيهى ورأيى لا يخطىء » •

ويبدو لنا أن هذا تفاخر لا يقــوم على أسس قوية اذ أنه لو كان سكان الجنوب على هذه الدرجة من الضعف والمذلة ، فلماذا بنيت الحصون القوية على حدود بلادهم ؟ ••

لنستمع الى الملك مرة أخرى حيث يقول :

« لقد سبيت نساءهم وأسرت رجالهم » ••

« وبلغت آبارهم » ••

« وذبحت ثيرانهم وجنيت محصولهم » ••

« وأشعلت فيها النيران » ••

« والآن ، انظر •• ان جلالتى أقام تمثالا لجلالتى على الحــدود لأضمن لكم الرخاء ، وأمكنكم من الدفاع »

أما قلعة « قمة » المواجهة لقلعة « سمنة » على الجــانب الآخر من النهر فقد شيدت من صخور بيض جلبت من « شعت » ويبدو أن (شعت) هذه كانت قريبة من « قمة » واذا كان جنــود « سنوسرت الأول » قد استطاعوا بلوغ « شعت » واخضاعها وجلب الاحجار منها ، فمعنى ذلك أن هذا الملك هو الذى فتح النوبة فى أثناء حكم الاسرة الثانية عشرة ، ولكن حفيده « سنوسرت الثالث » هو الذى جنى ثمار فتوحه فرفع الى مصاف الآلهة •

ولنعد مرة (ثانية) الى منطقة الحدود فنقول : ان البعثــة الالمانية الكبرى التى جاءت بين سنتى ١٨٤٢ و ١٨٤٥ تحت رياسة « لبسيوس » قد عثرت على نقوش هيروغليفية فوق بعض الصخور فيمــا وراء « سمنة » ومن بين ما كتب فوق هذه الصخور ما يلى :

« مستوى النيل فى السنة الخامسة والعشرين من حكم جلالة الملك امنمحعت الذى يمنح الحياة والهدوء والثروة على الدوام مثل الشمس »

وهذا يدلنا على مـــدى ارتفاع مـــــاء النيل فى عهد « امنمحعت الثالث » من ملوك الاسرة الثانية عشرة . ولكن الذى حير الاثريين هو أن العلامة التى تدل على مستوى ماء النيل ترتفع ٣٦ قدما عن المعدل الحالى للنيل وقت الفيضان . وليس هذا أمرا غريبا فقد سجلت الأسرتان الثانية عشرة والثالثة عشرة مقاييس للنيل ترتفع ٢٤ قدما عن معدله الحالى وقت الفيضان .

ولقد كثرت تعليلات الاثريين والجيولوجيين لهذه الظاهرة ، فقال بعضهم : انها نتيجة زلزال أحدث التواء فى القشرة الارضـــية وأثر على مجرى النيل فى هذه المنطقة .

أما السير « وليام ويلكوكس » المدير السابق للخزانات فى مصر فقد كتب عام ١٩١٣ يقول : يرجح أن « امنمحعت » حاول حجز ماء النهـــر أملا فى انشاء خزان ، وأن الذين جاءوا من بعده تخلوا عن الفـــكرة ، وبمرور السنين عاد النيل الى مجراه الأصلى .

وهناك اعتقاد لا يزال قائما بين الكثيرين ، هو أن الفراعنة فكروا فى مشروع قريب الشبه بالسد العالى ، الذى تقوم مصر بانشائه الآن .

وفى عام ١٩٠٧ زار العلامة « جيمس هنرى برستد » حصون مصر الامامية فى النوبة ، وكان مع « برستد » فى زيارته لقلعة ســمنة « دى جاريس ديفز » وهو من خير من سجلوا النقـــوش الفرعونية ، وقد لاحظ « ديفز » فى أثناء زيارة قلعة « قمـــة » المواجهة لقلعة « سمنة » على الجانب الآخر من النهر ، آثار حفر على الصخور ، وأن هذه الصخور منخفضة نحو قدمين عن مستوى الفيضان فى عهـــد مصر الفرعونية ، واستنتج « برستد » من ذلك أن قلعة « قمة » وقت فيضان النيل فى عهد الأسرة الثانية عشرة كانت فوق جزيرة ، وأنه من المحتمل أن الحاجز الجرانيتى كان أكبر فى عهد هذه الاسرة . وهنا وقف « برستد » حائرا

فى تعليل هذه الظاهرة وقال ان البحث فى هذه الظاهرة يحتاج الى خبير جيولوجى .

وقد وجد هذا الخبير فى شخص الجيولوجى « جون بول » لقد ذهب « بول » الى قلعة « سمنة » عام ١٩٠٢ لدراسة « سد سمنة » وقد كتب « بول » يقول : ليس من الصعب حجز ماء النهر بوضع كتل صخرية ثقيلة فى مجراه الأوسط ، ولكن ليس أمامنا دليل على ذلك بخلاف ما قرره السير « وليام ويلكوكس » فى كتابه « الرى فى مصر » ، والحفر الصخرية المنتشرة على طول الحاجز المائى تثبت شدة تآكل الصخر وقت الفيضان وقد تتداخل الحفر الصخرية بعضها فى بعض أحيانا مما يسبب انهيار الصخر ، يضاف الى ذلك ان الصخور ، التى لم يمسسها الفيضان تتآكل وتتفتت بسبب تعاقب الحر الشديد والبرد الشديد عليها نهارا وليلا .

ومضى « بول » يقول : ان المجرى الاوسط العميق المشاهد فى النيل عند « سمنة » لا يرجع الى وجود صخر لين ، بل الى عوامل التآكل الصخرى وأكثر جهات المجرى عمقا تحمل قدرا أكبر من الماء المحمل بالغرين (١) .

وهنا يجرى « بول » عملية حسابية فيقول : ان عملية التآكل بلغت ثمانية أمتار فى أربعة آلاف سنة ، فى حين تبلغ مساحة منطقة الحاجز المائى مائة ألف متر مربع ، ومعنى ذلك أنه فى كل سنة قد أزيل من الصخر مائتا متر مكعب بفعل التآكل وهذه الكتلة الصخرية تزن خمسمائة طن فى حين يبلغ تصريف ماء النيل السنوى عند « سمنة » مائة مليون طن من الماء ، ومعدل سرعة جريانه ٤ر٥ كيلو متر فى الساعة فى وقت الفيضان ، و ٢ ¼ كيلو متر فى الساعة وقت انخفاض النيل ، أى أن هذه السرعة تستطيع نقل الحصى ، بل تستطيع أحيانا نقل قطع من الصخر تبلغ حجم رأس الانسان ، يضاف الى ذلك أن الغرين وتراب

---

(١) الطمى

الصخر العالق بالماء يترسب كل سنة فوق الحاجز بمعدل ستين مليون طن .. ومن ذلك يستنتج أن ازالة خمسمائة طن من الصخر كل سنة لم يكن شيئا ممكنا فقط ، بل شديد الترجيح .

هكذا يستخلص « بول » من دراسته ان انخفاض منســـوب النيل بمقدار ٢٤ قدما عند قلعة « سمنة » منذ الاسرة الثانية عشرة حتى اليوم هو نتيجة طبيعية لفعل التآكل واذن فليس هناك ما يعزز فكرة اقامة سد في العصور القديمة في هذه المنطقة ، ولكن « وليام ويلكوكس » عاد في عام ١٩١٥ فأكد أن أمنمحعت حاول التحكم في ماء النهر في هذه المنطقة ..

« ٥ »

لقد عثر على بعض أوراق من البردى تتصل بموضوع قائمةالحصون التى أقيمت عند منطقة الشلالات فى مصر الفرعونية . وقام بدراسة هذه الأوراق الأثرى « بول سمذرز » فثبت من الدراسة أن هـــذه الوثائق مجموعة رسائل من قلعة « سمنة » وغيرها من الحصون الاخرى عام١٨٤٤ قبل الميلاد فى عهد الملك « امنمحعت الثالث » الذى حكم بعد « سنوسرت الثالث » . وكانت هذه الرسائل موجهة الى موظف كبير فى العاصـــمة المصرية « طيبة » وتوضح تلك الرسائل الاعمال اليومية التى كانت تجرى فى هذه القلاع الفرعونية المقامة فى النوبة ، فهى تتحـدث عن تحركات النيهى والميجو (النوبيين) وتنقلات البدو فى الصـــحراء والقبض على المشبوهين منهم واستجوابهم ، أى انها صورة دقيقة للمخابرات العسكرية فى تلك المراكز الامامية .

ويبدو من قراءة بعض تلك الرسائل أن الحاميات المصرية فى القلاع الجنوبية كانت تستخدم حرسا من النوبيين تحت امرة ضباط مصريين ، بل ان الجانب الاكبر من رجال الحامية كانوا من أبناء النوبة .

وقد جاء فى احدى هذه الرسائل ما يلى :

« لقد عثرنا على رجلين وامرأتين من الميجو (النوبيين) وباستجوابهم

ذكروا انهم قادمون لخدمة « البيت الكبير - أى الفرعون - وقد سألناهم : ماذا يجرى فى الصحراء من حوادث ؟ فقالوا : لاشىء ، ولكن الصحراء تموت جوعا ... »

ويتضح من هذا الاستجواب أن الموظف المصرى كان يحاول أن يعرف : هل هناك تمرد فى الصحراء ؟ ..

وقد واصل الاثرى (بول سمذرز) دراسته هذه الرسائل الشائقة ، ولكنه مات قبل ان يستكمل قراءاتها ، ولولا ذلك لقدم لنا صورة واضحة عن النظام السياسى والاقتصادى الذى وضعته الدولة الوسطى لبلاد النوبة .

ولكن التجارة عند (سمنة) كانت تجرى على نطاق ضيق وفى منطقة صحراوية قليلة السكان ، أما التجارة على نطاق واسع فكانت تتم فى الجنوب حيث يكثر السكان وتتوافر الزراعة والحاصلات الافريقية من عاج وأبنوس وصمغ وأخشاب ثمينة . وهذا المكان الثانى اكتشفه (ريزنر) عند (كرمة) وهى على مسافة مائتى ميل جنوب (سمنة) وفى هذه المنطقة يكثر رجال « المجموعة ج » وتظهر صور الماشية على الصخور ، وأكوام الصخر التى تمثل المقابر على جزيرة « ساى » .

وهناك بناءان ضخمان من اللبن يطلق عليهما الاهالى اسم « الدفونة » ، وقد أقيما فى عهد الملك « امنمحعت الأول » أو الثانى : أحدهما معبد والآخر حصن ومتجر . وقد عثر « ريزنر » فى « الدفونة » على أدوات لصنع الخزف وصقله ، وزخارف من الميكا ومسابح من الكوارتز ، وكذلك عثر على اختام الصلصال من عهد الهكسوس فى مصر .

وعثر « ريزنر » أيضا على مقابر ضخمة ثبت له من دراستها أن الرجل اذا مات دفنت معه أسرته وخدمه جميعا قربانا للآلهة ، وليس لذلك مثيل فى مصر الفرعونية ولكن هذه المقابر تذكرنا بذلك التقليد الهندى المعروف باسم (ساتى) والذى أبطل عام ١٨٢٩ ، وكان هذا التقليد يقضى بأن تحرق الارملة نفسها مع زوجها الراحل وكان الميت يدفن بملابسه وسلاحه كله وأدوات زينته . وبجانبه مروحة من ريش النعام وصندل من

الجلد الخام ، وكانت الجثة تغطى بجلد الثور وبجانبها عدد من الكباش لا يقل عن اثنى عشر كبشا •

ان هذا المشهد البشع يقدم لنا صورة مخيفة عن الطريقة التى كان يضحى بها الاحياء من حول الميت ، لقد كان هؤلاء يدفنون احياء وهم فى أتم صحة • وقد ظهرت علامات الفزع على وجوه البعض ، وان كانت هناك وجوه أخرى قد استسلمت لمصيرها المحتوم • ولم يكن هنـاك تحنيط ولا أدوات للتحنيط ، كما هو الحال فى مصر الفرعونية •

وأشد المناظر بشاعة مشهد الفتيات الصغيرات وقد زحفن الى ما تحت فراش الميت لعلهن يجدن وقاية من المصير الذى يثير الرعب ، فلا يجدن الا الموت اختناقا بعد أن ينهال التراب على من فى المقبرة •

ويقول « ريزنر » : ان تشييع الميت الى هذه المقبرة المرعبة كان يتم وسط العويل والصراخ الذى نشاهده حتى اليوم بين سكان وادى النيل ، واذا ما حانت ساعة الدفن أخذ الكاهن يرتل أناشيد دينية ، ثم يعطى اشارة فيبدأ حملة « المقاطف » بملئها بالتراب ، وبعد فترة وجيزة تمتلىء غرفة الميت ودهليز القربان بالتراب ، فيموت أعضاء أسرة الميـت وأتبـاعه مختنقين •

لقد كانت العادات فى « كرمة » تختلف عنها كثيرا فى مصر ، وذلك لعدم اهتمامها بالحياة الانسانية اهتماما كاملا •

ويقول « ريزنر » : ان عادة دفن الاحياء مـع الميت قد اختفت من مصر منذ عصر ما قبل الاسرات ، ويبدو أن ذلك راجع الى مافى هذه العادة من استنزاف للقوى البشرية ، والى معرفة الكتابة والنقش اللذين استعيض بهما عن دفن الاحياء مع الميت • ويعلل « ريزنر » بقاء هذه العادة « فى كرمة » ببعدها السحيق عن مصر وقربها من الهمج •

لقد كانت « كرمة » مستعمرة مصرية وربما انتقلت الى الحـكام المصريين فى هذه المستعمرة عادة دفن الاحياء مع الميت ، بحكم الجـوار وتقليد الجماعات التى تعيش فى المنطقة ، يضاف الى ذلك أن مستوى المهارة

فى التحنيط قد هبط الى حد كبير فى عهد الدولة الوسطى ، وأن الرحلة الشاقة الباهظة النفقات من « كرمة » الى طيبة جعلت نقل الميت الى مصر لتحنيطه أمرا غير ممكن من الناحية العملية • وكان المعتقد أن الروح تستطيع القيام بالرحلة من « كرمة » الى مصر فى سرعة وأمان ، ولذلك وضع النعلان فى قدمى الميت والبس ملابسه كاملة ، ووضع وجهه فى اتجاه مصر ، ولما كان المعتقد أن أهل الميت وحاشيته سوف يقاسون الأهوال بين القبائل المتوحشة فى الجنوب صار من الافضل أن يدفنوا أحياء مع عائلهم لتسافر أرواحهم الى مصر فى حمايته •

ويقول « ريزنر » : انه عثر على مقابر فى « كرمة » لأمراء مصريين من بينهم الامير « حب زيفا » أحد أمراء أسيوط وزوجته « سيخاموى » • و « حب زيفا » معروف لعلماء الآثار المصرية ، لان له فى اسيوط مقبرة لا تضم جثته ولا أدواته ، وانما أقامها كهنة أسيوط لصيانة الروح « كا » وكأن « حب زيفا » كان يعلم أنه سوف يدفن غريبا عن بلاده •

ويستطرد « ريزنر » قائلا : ان « حب زيفا » هذا كان حاكما على « كرمة » من قبل الفرعون « سنوسرت الاول » أو « امنمحعت الثانى » وكان ذلك فى نحو عام ١٩٤٠ أو عام ١٨٨٠ قبل الميلاد • ويعتبر « حب زيفا » أول حاكم » « لكرمة » بالطريقة الهمجية التى كانت سائدة هناك •

ويخالف البروفيسور « آركل » رأى «ريزنر » فيقول : ان المقابر التى اكتشفت فى « كرمة » ليست لامراء مصريين كانوا حكاما على البلاد من قبل فرعون مصر ، وانما هى مقابر لسكان المنطقة الوطنيين ، وهم الكوشيون وأن « كرمة » لم تكن مركزا لنائب الملك فرعون مصر ، ولكنها كانت محطة تجارية لتبادل التجارة بين مصر وسكان الجنوب •

لقد أسهبنا فى الحديث عن « كرمة » وما حولها مع أنها بعيدة عن موضوع السد العالى ، ولكنى أود أن أقدم للقارىء صورة واضحة عن منطقة السد وما يحيط بها وما يرتبط بها من الناحية التاريخية ومن ثم رسم صورة ذهنية واضحة لبلاد النوبة كلها •

بينما كان المسينيون يطورون أول مدينة اغريقية ، حلت بمصر كارثة كان لها آثارها السيئة في النوبة • فقد غزا الهكسوس مصر ، وسقطت الاسرة الثالثة عشرة المصرية وحل بمصر عصر مظلم بدأ من عام ١٧٨٠ الى عام ١٥٨٠ قبل الميلاد ، وهو عصر لم يستطع علماء الآثار المصرية أن يحدثونا بشيء عنه • غير أن الحفائر النوبية تنبئنا بأن الأمور كانت تسير في النوبة سيرا معتادا ، ثم جاء وقت هاجم فيه الجنوبيون الحصون المصرية فأحرقوا بعضها وانسحب المصريون من البعض الآخر • ويعتقد بعض المؤرخين أن الهكسوس واصلوا تبادل التجارة مع سكان الجنوب ، واستدلوا على ذلك بوجود أختام هكسوسية في « كرمة » • ولكن يبدو أن من الصعب قبول فكرة أن الهكسوس استطاعوا أن يجتاحوا النوبة من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب ، في حين كان يعترض طريقهم أمراءطيبة في مصر العليا •

ويعتقد البروفيسور « آركل» أن الصراع بين أمراء طيبة والهكسوس أضعف قبضة مصر على النوبة مما أتاح الفرصة أمام سكان الجنوب للاستقرار وقبول اساليب مصر الحضارية • يضاف الى ذلك أن كثيرا من مرتزقة « الميجو » وهم قبائل نوبية ، كانوا جنودا في الجيش المصرى •

وبدخول الهكسوس مصر عاد هؤلاء الجنود الى النوبة فكانوا عناصر لنشر الحضارة المصرية بين سكانها ، مما سهل على المصريين اعادة احتلال النوبة بعد طرد الهكسوس •

وفي سنة ١٩٠٨ كان « هوارد كارتر » ينقب عن الآثار المصرية بتكليف من اللورد « كارنارفون » فعثر في معبد الكرنك ، على لوحة حجرية أدرك منها المؤرخون أن الملك « كاموس » من ملوك الاسرة السابعة عشرة واصل حرب التحرير ضد الهكسوس التى بدأها سلفه « سنحيتى رع »

وفى عام ١٩٥٤ عثر الدكتور حماد ، مفتش آثار فى الاقصر ، على حجر كبير فى قاعة تمثال « رمسيس الثانى » • وقد اكتشف أنه لوحة سطر عليها الملك « كاموس » قصة كاملة لصراعه ضد الهكسوس • وفى هذه اللوحة يوجه كاموس حديثة الى أبو فيس ، ملك الهكسوس فيقول :

« ان أنباء هزيمتك سوف تفقدك مكانتك فى أرضك ، ولقد أصبحت من الضعف بحيث لا تستطيع أن تتخذنى تابعا لك ، بل انك لا تستطيع أن تحدد أين يكون النزال بينى وبينك • وحينما يزحف جيشى فانك ستولى الأدبار ، وسيؤدى الفزع بنساء أفاريس « هوارة » الى العقم ، وسوف يتجمد الدم فى عروقكم حين تسمعون صيحات رجالى »

ويمضى « كاموس » فى قصته فيقول : لقد حاصرت عاصمتكم « هوارة » من البر والبحر وشاهدت رجالكم ونساءكم يختلسون النظر من من وراء الابواب كالجراد ، لقد جئت الى هنا بارادة آمون • ولن أسمح لكم بتثبيت أقدامكم على أرض وطنى • »

« أيها الاسيويون التعساء •• سوف نشرب الخمر من كرومكم بعد أن صنعته أيد آسيرية قطعتها اربا اربا لادمرن بيوتكم ولأقطعن أشجاركم ولأسبين نساءكم ، ولن أبقى لكم زرعا ولا ضرعا ولا مالا » •

والواقع أن كل هذه العبارات لم تتجاوز معنى التهديد ، فالهكسوس لم يخرجوا من مصر الا فى عهد خلفه •

أما أفاريس ، أو هوارة فقد افترض علماء الآثار المصرية وجودها قرب مدينة بورسعيد الحالية ، ذلك بأن أحد المؤرخين ، الذين عاشوا بعد عهد الهكسوس بألف وثلثمائة عام ، قال انها على ساحل البحر •ولكن لايوجد أى أثر لمثل هذا المكان •

ولكن لنستمع الى « سترابون » حين زار قصر « اللابيرانت » الذى بناه « امنمحعت الثالث » من ملوك الاسرة الثانية عشرة ، اذ يقول : « هناك بحيرة موريس العجيبة التى تشبه البحر فى اتساعها ولونها ، وشواطئها تشبه سواحل البحر »

وبحيرة موريس منخفض طبيعى فى غرب النيل ، وبقاياها اليوم هى بركة قارون فى الفيوم • ولقد قام « امنمحعت » باعادة حفر المجـــرى المنخفض الطبيعى الذى يربط البحيرة بالنيل ، وجعل منها بحرا داخليـا كبيرا يمتص مياه الفيضان جميعها •

ويقول « سترابون » : انه رأى الماء يعود من البحيرة الى النيل فى القناة نفسها وقت هبوط منسوبه ، وبذلك أمكن استخدام الماء العائد من البحيرة فى رى الأرض • وقد أنشأ « امنمحعت » بوابات ذات عيون فى مدخل القناة وبهذه البوابات يستطيع المهندسون التحكم فى المياه الداخلة اليها أو الخارجة منها •

وأغلب الظن أن هذا هو مكان « هوارة » فهى على « شاطىء البحر » وهى تتحكم فى خيرات الدلتا بالبوابات ذات العيون ، والاســـتيلاء على هوارة معناه القضاء على العدو بالموت جوعا أو غرقا •

ولنرجع الى التسمية ، فمدينة « أفاريس » كان اســـمها فى عهد الهكسوس « هاء أوار » ومن السهل تحوير الاســـم من « افاريس » الى « هافاريس » ثم الى « ها ـ فار » ثم الى « ها ـ أوار » واليوم توجـد بلدة « هوارة » فى المكان الذى شيد فيه تصر « اللابيرانت » منذ القـدم ، ومن المؤكد أن هذا هو المكان الذى كان الملك « كاموس » : يريد أن يستولى عليه حين هدد الهكسوس •

ويقول السير « وليام ويلكوكس » مدير الخزانات السابق فى الحكومة المصرية : ان السنوات السبع العجاف والسنوات السبع السمان الواردة فى قصة يوسف ، يمكن تفسيرها فى ضوء بحـــيرة موريس وأفاريس (هوارة) والبوابات المتحكمة فى ماء الفيضان • ويقول « ويلكوكس » : ان يوسف وفد الى مصر ، وانضم الى حاشية أحد ملوك الهـــكسوس فى مصر السفلى ، فى حين كان أمراء طيبة يقبضون على الســـلطة فى مصر العليا • ويبدو أنه حين أراد أمراء طيبة مهاجمة ملك الهكسوس ورأى الرؤيا الواردة فى الكتب المقدسة فسرها يوسف تفسيرا علميا ، فأشار على

الملك بتخزين القمح للسنوات العجاف التى قد يتحكم فيها المهاجمون فى البوابات .

وهكذا استولى أمراء طيبة على هوارة وتحكموا فى مياه النهروبدأت السنوات العجاف . ثم استعاد الهكسوس « هوارة » وجاءت السنوات السمن . ولما استولى الطيبيون نهائيا على المكان دب اليأس الى قلب الهكسوس ، وفروا من البلاد .

ثم جاء ملك لايعرف يوسف .

ويبدو أن هذا الملك هو «أحمس» أول ملوك الاسرة الثامنة عشرة ، وهو الذى طرد الهكسوس من مصر عام ١٥٧٧ قبل الميلاد .

وتفسير « ويلكوكس » تفسير جميل ، ولكن يحسن بنا أن نعود الى العمود الحجرى الذى وجده الدكتور حماد فى معبد الكرنك ، وقد كتب عليه الملك « كاموس » قصته ، وذلك كى تصل الى الموضع الذى يربط بين غارات أمراء طيبة النيلية على « هوارة » وبين الشئون القائمة فى النوبة حين ذاك .

يواصل « كاموس » قصته فيقول : ان رجاله استطاعوا قطع الطريق على رسول من رسل « أبوفيس » ملك الهكسوس حيث كان الرسول ذاهبا عن طريق الصحراء جنوبا الى بلاد كوش ومعه رسالة ، وسير الرسول عن الطريق الصحراوى وتجنبه وادى النيل يدل على أن الوادى فى مصر العليا كان حين ذاك فى قبضة أمراء طيبة ، واذن فليس من المحتمل أن الهكسوس كانوا يسيطرون على النوبة كما يدعى البعض .

ويقول « كاموس » فى غيظ واشمئزاز : هذا ما سطره ملك الهكسوس الى أمير كوش فى رسالته :

« تحية من » « أبوفيس » الى أمير « كوش » ألم تر ما فعله الامير المصرى ضدى ؟ انه يزاحمنى فى بلادى مع انى لم أهاجمه كما فعل بكم . لقد استقر رأيه على أن يغتصب منى ومنكم بلادنا ، ولقد أضر ببلدينا ضررا

بليغا ، تقدم الى شمالى الوادى ولا تخف • انى أشاغله الآن ولن تجد من يعترض سبيلك فى مصر العليا • وسوف أواصل مشاغلته حتى تقدم ، وحين ذاك نقتسم مدن مصر فيما بيننا ونعيش فى رخاء وسعادة • »

ومن هنا يمكن استنتاج أن الاختام الهكسوسية التى وجـــدت فى « كرمة » فى الجنوب جاءت عن هذا الطريق ولهذا الغرض نفسه •

ان عمود الكرنك يثبت لنا أن الهكسوس لم يكونوا يحكمون النوبة كما يثبت أنه كان فى النوبة مملكة على درجة من القوة تمكنها من مساعدة الهكسوس ضد أمراء طيبة الثائرين فى مصر العليا •

ولقد وجد اسم الملك « كاموس » منقوشا على الصخر قرب «توشكى» ومن هنا يمكن القول بأن « كاموس » أغار على النوبة قبل أن يبدأ حرب التحرير ضد الهكسوس •

ويحدثنا « كاموس » فى قصته أنه أعاد الرسول الى ملك الهكسوس ليخبره بما أعده له « كاموس » من حرب ودمار ، وأنه قد دمر اقليم سين (أسوان) تدميرا تاما ، وأنه أرسل حملة الى الواحة البحرية حتى يؤمن مؤخرته ، وقد يكون بذلك قد أراد قطع خطوط الاتصال بين الهكسوس والنوبيين •

ويمضى « كاموس » فى سرد قصة عودته المظفرة الى طيبة فيقول : « عدنا فى النيل نحو الجنوب ووصلنا الى اسيوط وقت الفيضان ، وقد عم البشر كل الوجوه ، واكتسب جوانب النهر بالخضرة والنماء ، وفى طيبـة خرج الرجال والنساء وكأنهم فى مهرجان عظيم وأخذت النساء يعانقـن بعضهن بعضا » •

« لتسجل تلك الاعمال العظيمة ، التى حققتها جلالتى ، على عمود ، وليقم هذا العمود فى معبد الكرنك فى طيبة ليقرأه من بعدنا الخلف ••

على جزيرة « ساى » فيما وراء قلعة « سمنة » بقايا حصــــن قديم ضخم ، ويقول البروفيسور « برستد » الذى زار هذا المكان عام ١٩٠٧ :

إنه كان معقلا لاحد فرسان النوبة فى العصور الحديثة ولـــكنه يقوم على أنقاض حصن فرعون من عهد الدولة الحديثة وربمـــا كان من عمـــل « أحمس »أول ملوك الاسرة الثانية عشرة وهو الذى أغار على النوبة بعد أن طرد الهكسوس من مصر السفلى • وقد أبلغنى المسئولون فى مصلحة الآثار السودانية أن « ساى » سوف تكون ضمن الاماكن التى تغمرها مياه السد العالى ، وفى هذا خسارة كبيرة ، لان حفائر « ساى » لم تتم بعد ، ولم تتحقق حتى الآن : هل الملك « أحمس » قد بلغها فى غارته جنوبا على النوبة ؟ ••

وفى عام ١٩٠٧ ركب البروفيسور « برستد » زورقا وذهب لزيارة « تانجور » فيما وراء « سمنة » وهناك فوق الصخر وجد كتابة أثرية جاء فيها : السنة الثانية من حكم صاحب الجلالة تحتمس الأول ـ طال بقاؤه ـ لقد مر جلالته بهذا المكان فى طريقه للقضاء على أهل كوش المحتقرين ـ وكان كاتبه العسكرى أحمس يعد السفن » •

ويعتقد « برستد » ان احمس بلغ بأسطوله الضخم « تومبوس » على مقربة من « كرمة » وأن « تحتمس » لم يزد على ما بلغه أحمس • ومع ذلك فنحن نعتقد أن « تحتمس » قد قال الصدق حين قرر أنه بلغ مكانا لم يبلغه أى فرعون قبله ، وهناك بعض آثار تدل على أنه سار جنوبا حتى بلغ « مروى » التى اصبحت عاصمة للمملكة المروية عام ٥٠٠ قبل الميلاد• واذا ثبتت صحة ذلك ثبوتا تاما فمعناه أن مصر كانت على اتصال بافريقية السوداء •

وفى اثناء عودة تحتمس الاول الى مصر استخدم القناة التى سبق أن شقها « سنوسرت الثالث » عند أسوان • وقد وجدت نقوش جاء فيهـا ما يلى : « فى السنة الثالثة ـ فى الشهر الاول من الفصل الثالث ـ يوم ٢٢ ـ من حكم صاحب الجلالة ملك مصر العليا والسفلى تحتمس ـ طال بقاؤه ـ أمر جلالته بإعادة حفر هذه القناة التى سدت مجراها الاحجار ـ وسار فيها بمراكبه بعد أن ذبح أعداءه •

ابن الملك (نائب الملك)

(نورى)

ان رحلة تحتمس الاول الى كوش تعد آخر رحلات الفراعنة الى هذه البلاد ، أما النقوش التى عثر عليها بعد ذلك ، وهى نقوش توضح تحطيم الفراعنة لقوات النوبيين ، فانها صور رمزية وضعت فى اللوحات لتقيم توازنا فنيا مع فتوح الفراعنة فى آسيا . ومنذ ذلك الحين أصبحت النوبة السفلى اقليما مصريا ، وصارت هى وبعض اجزاء كوش فيما يليها جنوبا تقوم بدفع الجزية بانتظام الى الخزانة المصرية ، وكان الفراعنة يعينون لهم فى هذه المنطقة نائب الملك فى كوش ويحمل لقب « ابن الملك » وكان مقره فى « معام » التى تقوم فى مكانها الآن عنيبة . ولا تزال هناك آثار كثيرة لم يتم كشفها بعد .

ومن حسن الحظ ان المنطقة فى أيد قديرة ، اذ يشرف عليها الدكتور ابو بكر من جامعة القاهرة ، ونحن فى انتظار انباء هامة منه .

ولما مات الفاتح العظيم تحتمس الاول عام ١٥٢٠ قبل الميلاد تمرد الكوشيون ومعهم « مجموعة ج » وهى التى كانت تقطن فى النوبة السفلى ، ولكن « تحتمس الثانى » ذكرهم بأن قوة فرعون لم يصبها أى ضعف ، ثم أرسل اليهم حملة تأديبية كانت آخر العمليات العسكرية فى هذه المنطقة . ولما جاء حكم الملكة « حتشبسوت » كان عهدها عهد سلام فى هذه المنطقة ، وانتعشت التجارة مع النوبة وكانت حتشبسوت مشتركة فى الحكم مع اخيها « تحتمس الثالث » فقد أقاما معبدا صغيرا فى قلعة « قمة » وأهدياه للاله « خنوم » وسنوسرت الثالث بعد أن رفع الى مصاف الالهة .

ويقول برستد وفيرمان : ان المناصب الكبرى فى النوبة كانت فى ايد

مصرية ، ولكن كان بجانبهم عدد من سكان البلاد المتمصرين يتولون بعض الوظائف ، أما الادارة الاقليمية فكانت فى ايدى النوبيين •

وهكذا نجد بين الاسرتين الثانية عشرة والعشرين نوعا من الحماية والادماج لاقليم النوبة • ولكن النوبة مع ذلك لم تصبح مستعمرة مصرية بمعنى أن المصريين لم يهاجروا للاقامة فيها كما أنهم لم يحـــاولوا طرد سكانها الاصليين ،وظلت النوبة فى نظر المصريين مركزا اماميا اجنبيا يعمل فيه الجندى والتاجر ، ولا تزال هذه سمة من سمات سلالة الفراعنة ، فهم يلتصقون بمسقط رأسهم ويكرهون الانتقال الى خارجها وان كان ذلـــك أعالى نهر النيل •

ولقد كان من المعتاد أنه اذا توفى احد من المصريين ، الذين يعملون فى النوبة ، نقل جثمانه الى مصر ، ومن ذلك نستنتج أن المقابر التى اتخذت الطراز المصرى فى النوبة انما هى لنوبيين ، اتخـذوا أسماء والقابا مصرية فى حين أن المقابر المزخرفة التى من الطراز الطيبى نادرة جدا • ويرجح أن المقبرة الوحيدة من هذا النوع من مخلفات الاسرة الثانية عشرة • وهى للأمير « جيهوتى ــ حتب » وهى فى « دبيرة شرق » على مسافة تسعة أميال من وادى حلفا ، وهذا الامير النوبى قد اتخذ اسماء والقابا مصرية ، واتجه فى صلواته الى الآلهة المصرية ، وأهدى مقبرته الى سيدة الارضين الملكة حتشبسوت •

وقد علق « سيف سيد رميرج » على هذه الظاهرة حين زار المنطقة عام ١٩٦٠ قائلا :

ان هذا القبر ونقوشه دليل قوى على أن حركة « تمصر » الزعمـاء النوبيين كانت قائمة وشديدة فى أثناء حكم حتشبسوت وتحتمس الثالث ، ومنذ ذلك الوقت أصبح من المستحيل التمييز بين الحكام المصريين والنوبيين الذين دخلوا خدمة الفراعنة فى النوبة •

والمعابد التى اقيمت فى النوبة فى عهد الدولة الحديثة من الكنوز

الأثرية التى نخشى أن يغمرها ماء السدالعالى ، وهى تتدرج فى الضخامة ، من مجرد نماذج صخرية صغيرة الى معابد ضخمة مثلى معبدابوسمبل •

وأحسن هذه المعابد من الناحية الفنية هو المعبد الذى أقامه « أمنحتب الثانى » فى « عمارة » فى منتصف المسافة بين اسوان ووادى حلفا ، ولهذا الملك نصب حجرى فى « عمارة » مدونة عليه أعماله المجيدة فى سورية والنوبة ، فيه يبدى قوته الهرقلية الهائلة ، وكيف أنه استطاع أن يذبح بيديه سبعة من الملوك • وقد علقت جثث ستة منهم على حصون طيبة ، أما الجثة السابعة فقد أرسلت الى « نباتا » فى بلاد كوش وعلقت على أسوارها الخارجية •

وقد استخدم هذا المعبد فيما بعد ليكون كنيسة مسيحية بعد أن غطيت نقوشه بالملاط ، وأقيمت فوقها نقوش وزخارف مسيحية •

وقد استطاع حين زيارته للمعبد أن يكشف الزخارف المسيحيه ، فظهرت من تحتها كتابة أثرية دونها « هك نخت » الذى كان نائبا للملك فى عهد رمسيس الثانى •

وعلى لوحة أخرى فى قدس الاقداس فى « عمادة » ينبئنا الملك « امنحتب الثانى » كيف أنه قام بزخرفة هذا المعبد الذى اقامه والدهتحتمس الثالث •

ويحدثنا ويجول أنه قرأ على سقف معبد « عمادة » ما يلى : « باللغة الاغريقية » : هيرودوت شاهد واعجب •

لقد جاء « هيرودوت الى مصر عام ٤٥٠ قبل الميلاد ولا شك أنه قد بهره جمال الفن المصرى الذى شاهده فى معبد « عمادة » •

وعلى مقربة من « عمادة » معبد صغير أقامه « تحتمس الثالث » وقد أبدت حكومة الجمهورية العربية المتحدة استعدادها لتقديمه لمن يقدم عونا ماليا لصيانة آثار النوبة ويجب أن تكون المعونة المالية قيمة بحيث تتناسب مع أهمية الحصول على معبد فرعونى بأكمله •

ولا ننسى هنا ان نسجل كلمـــــة عن أضرحة « ابريم » وقد زارها « لبسيوس » كما زارها البروفيسور « برســـتد » عام ١٩٠٦ . وقال « برستد » : انها لم تكن مقابر تضم رفات اشخاص ، ولكنها وسيلة كان حكام النوبة من المصريين يخلدون بها ذكراهم ، وذلك لانهم لم يكن فى استطاعتهم أن يشيدوا معابد لحسابهم الخاص .

وقد كان من عادة نواب الملك فى النوبة أن يدونوا فوق جـدران هذه الاضرحة أعمالهم فى النوبة ، وبخاصة قدرتهم على جباية الضرائب وتحصيل الجزية من زعماء النوبة ومن بين هؤلاء الحكام « ســـيتا » نائب رمسيس الثانى فى حكم النوبة .

ولقد بلغ الازدهار والسلام درجتهما القصوى فى الجنوب فيما بين عام ١٤٧٠ وعام ١٣٧٠ قبل الميلاد ، فى عهد الملوك التجـار ، الذين كان آخرهم « امنحتب الثالث » وقد أقام معبدين فخمين احدهما فى « سلب » والآخر فى « الاقصر » ، وعلى بوابة معبده فى الأقصر نقوش من عهد ابنه الثائر « امنحتب الرابع » الذى غير اسمه الى « اخناتون » وأعلن عقيدة التوحيد . وتزوج « نفرتيتى » اجمل امرأة فى التـــاريخ . واتخــذ « اخناتون عاصمته فى أخيتاتون » تل العمارنة » ولكن هذه المدينة دمرت حين وفاته على أيدى كهنة آمون .

واذا كان كهنة آمون قد دمروا مدينة الشمس ، التى أنشــــأها « أخناتون » فان معبد « سلب » لا يزال قائما ، وهو بدوره يســـــــتحق الرعاية ، وفى « سيسيبى » ثلاثة أعمدة هى بقايا معبد لاخناتون .

ويقول « برستد » : ان هذا المعبد تحول الى محجر فى العهد المسيحى ولم يبق منه الا الاعمدة الثلاثة .

وفى الحفائر التى قام بها « فيرمان » عام ١٩٣٧ ثبتت صحة ما كتبـه « برستد » عام ١٩٠٧ ، فمدينة « سلب » وقد أنشأها « اخناتون » ولـــكن « سيتى الاول » اغتصبها لنفسه .

ونختتم هذا الفصل بأن عبادة « أتون » التى نادى بها « اخناتون » لم تثبت جذورها فى النوبة ، وظل آمون هو الاله الأعظم لألف سنة تلت •

« ٧ »

فى الوقت الذى كان الفراعنة فيه يقيمون معابدهم ويفرغون عليها أروع ما أبدع الفن كانت الحضارة البدائيـة فى كريت قد ازدهرت ثم اضمحلت بعد أن قضى عليها الغزاة وكانت الحضارة الصينية فى صراع قاتل مع الهمج من قبائل الهون ، أما فى الهند فكانت حضارة الموهنجـو ـ دارو • قد بلغت ذروتها وتبلورت فى نظام الطبقات الذى ما زال يسيطر على المجتمع الهندوسى حتى اليوم • وكان العيلاميون قد اجتاحوا بابل ، أما انجلترة فكانت مجتمعا من الرعاة •

كانت النوبة فى ذلك الوقت تعيش فى سلام تحت حكم الفراعنة ، ومن آخر آثار الاسرة الثامنة عشرة صخرة عليها معبد صغير ينسـب الى « حرم حب » فى مواجهة أبو سمبل ، ولقد محا المسيحيون بعض النقوش الفرعونية واحلوا محلها رسوما مسيحية تمثل القديس جورج على ظهر التنين • وقد زار هذا المكان الرحالة الفرنسى « لابورت » وشاهد ما أجرى فى العهد المسيحى من محو الآثار الفرعونية واحلال رسوم مسيحية محلها فعلق على ذلك قائلا :

ان من يحاول فرض عقيدة جديدة بتدمير القديمة لايمكنه ان يجىء بمثيل لما دمره • الواقع أن النقوش الوثنية التى خلفها « حرم حب » أبدع واتقن فنا من الرسوم المسيحية •

وعلى مقربة من معبد « حرم حب » أقيم محراب ينسب الى « بيسر » نائب الملك الذى كان فى خدمة « حرم حب » ، وكان لقب بيسر « حاكم بلاد الذهب التابعة لآمون » ومعنى هذا أن « حرم حب » قد أعاد لآمون كل النفائس التى سلبها اياه أخناتون وقدمها لمعبوده الواحد آتون • وفى عهد الاسرة التاسعة عشرة سيطر رمسيس الثانى على النوبة سيطرة كاملة ،

وتمثاله في معبد ابو سمبل يمثل ذروة ما وصل اليه الفن المصرى فى بنـاء المعابد الضخمة فى المنطقة التى تمتد من اسوان الى كوش •

لقد بنيت معابد كثيرة فى الالف وخمسمائة العام التالية ، ولكن مافى المعابد القديمة ، من سحر وفتنة قد زال •

لقد تساءل البعض : ما السبب فى أننا رأينا أنه من الضرورى اعادة تسجيل « بيت الوالى » تمهيدا للنشر ، مع أنه كان قد تم تسجيله قبل ذلك تسجيلا كاملا على يد البروفيسور « جونتر رويدر » ونشر عام ١٩٣٨ ؟ •

وردنا على هذا التساؤل ما يلى :

هناك درجات مختلفة للنشر عن الآثار المصرية ، ومن أعظم الخدمات التى تقدم للعلماء والدارسين انتاج صور جديدة لهذه الاثار تمتاز بالدقة وابراز التفاصيل • وقد يختلف تفسير العلماء للحقائق التاريخية باختلاف أسلوب النقوش الهيروغليفية وشكلها ، وقد يؤدى بعض الآثار الضـئيلة الأثر ، الذى اصابه العطب ، الى حل رموزه • ومن ثم يستطيع الأثرى فى مكتبه آن يعكف على دراسة هذه التفاصيل والأثار الدقيقة ويستنتج منها الحقائق التاريخية •

لقد كان ما نشره « رويدر » يعتمد اعتمادا اساسيا على التصـوير الفوتوغرافى للمناظر العامة ونقل النصوص • حقيقة ان الصـورة التى التقطت منذ خمسة وخمسين عاما لاتزال واضحة ولكن مقاييسها صـغيرة مما يثير الضيق حين دراستها دراسة تفصيلية • أما النقوش الهيروغليفية التى نشرها « رويدر » فانها ليست منقولة عن اصولها الهيروغليفيـة ، وكذلك لم يتم تصويرها منفصلة • ولا ننسى أن المال عنصر أسـاسى فى تسجيل الآثار ، فما دام المال متوافرا امكن اعداد فرقة كاملة من مهـرة المصورين والفنيين ونقلها الى المنطقة الأثرية التى يراد تسجيلها ، وهـذا ما فعله معهد الآثار الشرقية الذى تعمل معه فى تسجيل آثار النوبة •

ولقد سرنا حين عودتنا الى مقر البعثة فى الاقصر ، ان تلقينا برقيـه تفيد أن البروفيسور « جونتر رويدر » سوف يحضر شخصيا لمشاهدة ما

نقلناه عن « معبده » في بيت الوالى ، ولما حضر وجدناه رجلا فى الثمانين ولكنه ممتلىء بالحيوية • ولقد وجهنا اليه عدة أسئلة ولكنه هز رأسه فى أسف قائلا : لقد نشرت كتابى عن « بيت الوالى » منذ ربع قرن ، أما الصور فقد التقطتها قبل ذلك بثلاثين عاما ، ولقد تغير كل شيء ولا استطيع أن أجارى الموقف •

وحين بدأنا تسجيل « بيت الوالى » وجدنا أن المعبد كان قد حول الى كنيسة فى صدر العصر المسيحى ،ولكن الحجرات المحفورة فى الصخر لم تستخدم للعبادة ، وقد عثرنا على صليبين قبطيين محفورين حفرا عميقا فى أعمدة البوابة الوسطى • ولقد ظل معبد بيت الوالى يستعمل ككنيسة نحو سبعمائة عام ، ولذلك فقد كان عرضة لكثير من التغيير والاضافة فى المبانى •

وفى هذه المنطقة لاحظت أن أيدى اللصوص قد عبثت بالمقابر الأثرية الى درجة تدعو للفزع مما يبعث اليأس فى نفوس بعثتنا التى تعمل تحت رياسة الدكتور « ريكا » أما النتائج التى توصلنا اليها فلم تكن مشجعة ،اذ لم نعثر على شيء أثرى هام فى المنطقة ، ومع ذلك فقد حققنا هدفنا ، ذلك بأننا أثبتنا ان المنطقة قد استنفدت أغراضها « الاركيولوجية » وليس هناك ما يخشى عليه اذا غمرتها مياه السد العالى الى الابد ، وفى مقابل مابذلناه من جهد رأت حكومة الجمهورية العربية المتحدة بأن تعوضنا بأن تهدى لنا بعض الآثار القيمة المحفوظة فى مخازن مصلحة الآثار •

وحين كنت عند باب كلابشة شاهدت الطيور المهاجرة وهى فى طريقها عائدة الى أوربا • ذلك الطريق الذى سلكته الطيور التى سبقتها منذ آلاف السنين ، وسألت نفسى : ترى هل تضل هذه الطيور طريقها فى قدومها السنوى الى المهجر يوم تجد بحيرة فى هذه البقعة من افريقية لأول مرة فى التاريخ ؟

وعلى مسافة تبلغ نحو عشرين ميلا من بيت الوالى نجد فى المكان الذى يسمونه الآن « جرف حسين » بقايا أثرية ممتدة من عصر ما قبل

التاريخ حتى الدولة الوسطى فى مصر الفرعونية ، وقد عثر أحد اعضاء بعثة الآثار الايطالية على مقابر فى هذه المنطقه لافراد من « المجموعه ج » التى تحدثنا عنها من قبل ، وفى هذا المدن امام « سيتو » الذى دن نائبا للملك فى عهد « رمسيس الثانى » معبدا لمليكه . ويبدو انه كان لهذاالمعبد أهمية كبيرة فى عهد رمسيس ، فبوابته قريبة من ماء النهر ، وهناك طريق وضعت على جانبيه تماثيل « ابو الهول » وهو يؤدى الى سفح الجبل ، ومن هناك عدة درجات تؤدى الى بوابة تؤدى الى بهو ذى اعمدة ، واخيرا توجد القاعة الكبرى التى تبلغ مساحتها ٤٥ قدما مربعة وهى منحوتة فى الصخر .

ولرمسيس الثانى جهود أخرى فى هذه المنطقة ، فعلى مسافة ٩٤ميلا من أسوان « وادى السبوع » لقد كان الطريق الى وادى السبوع بعيدا عن النيل حينما زاره « سانت جون » منذ ١٢٥ عاما .

أما اليوم فان تماثيل أبى الهول التى بها رءوس كرءوس الأسود وتحف بالوادى من الجانبين ، فانها غارقة الى اعناقها فى المـاء فى اكثر الأوقات ، والرسوم اتى تشاهد فى وادى السبوع تكرار لما خلفه رمسيس الثانى فى معابد النوبة ، يضاف اليها قائمة بأبنائه وهى تضم ١٧٠ ، منهم ١١١ أميرا .

وقد عثر فى هذه المنطقة على لوحة لرجل اسمه « بعل اله العدل » مما يدل على أن الرجل سامى ، وأنه أراد أن يثبت تقديسه للآلهة المصرية والسامية ، ومن ثم نستنتج أن الاجانب أوغلوا فى تنقلاتهم فى مصر الفرعونية جنوبا حتى اسوان .

فاذا انتقلنا الى الدر فاننا نجد ان « رمسيس الثانى » بنى فى الصخر معبدا صغيرا آخرا ، ولقدتضاربت الآراء فىالدر فقد مر بها « سانت‌جون » عام ١٨٣٨ فقال : انها اجمل ما رأى فى مصر . ومر بها « جادزبى » فقال : انها قرية مصرية عادية وليس بها ما يستحق الذكر بعد أن جرد الأتراك سكان البلاد من كل ما يملكون ، ومرت بها « اميليا ادواردز » عام

١٨٧٤ فأحاط بها بائعو العاديات من كل جانب وألحوا عليها الحاحا جعلها تذكر ان النوبيين لايزالون متوحشين •

وقبل ان ننتهى من الكلام عن الدر نود أن نسجل أن المعابد التى عثر عليها فى الدر ، « وجرف حسين » ليست من النوع المتقن الصنع الذى نشاهده فى (أبو سمبل) ، ويبدو أن خيرة المثالين فى ذلك العصر كانوا يعملون فى (ابو سمبل) فى حين ترك لمعابد « الدر » وجرف حسين » قاطعو الاحجار فقط •

« ٨ »

فى حديث بينى وبين « آلان مورهود » فى الاقصر سألنى : هل معبد أبو سمبل يستحق أن ينفق على انقاذه ستون مليون دولار ؟

وردا على سؤاله أستشهد بما يلى :

لقد كتب شامبليون يقول : لو لم يكن فى زيارة النوبة غير مشاهدة معبد ابو سمبل لكفى •

وفى عام ١٨٢٩ كتب « بير كهارت » الذى اكتشف (ابو سمبل) عام ١٩١٣ يقول : ان وجه تمثال رمسيس يترك فى النفس أثرا عميقا وهو أقرب الى الجمال الاغريقى منه الى النموذج المصرى للجمال •

وكتبت « اميليا ادواردز » تقول : انه أكمل وجه نقله الينا الفن الفرعونى ، بل هو من أجمل الوجوه فى التاريخ •

اما « أوزبرت لانكستر » فقد كتب عام ١٩٦٠ يقول :

ان رمسيس فى (أبو سمبل) ليس الا فرعونا مجنونا بحب العظمة، ينظر فى غرور أحمق الى الصحراء •

والواقع أنه ما من عالم بالآثار المصرية حبذ فكرة انقاذ معبد (أبو سمبل) وحجتهم فى ذلك أن فى النوبة من الآثار ما هو أهم بكثير من هذا المعبد •

ولكن لندع آراء علماء الآثار المصرية جانبا ولننقـبـل عن العلامة « برستد » قوله ان « ابو سمبل » من اعظم مشاهد العالم اجمع ، لالجماله وحده ، ولكن لأنه مستودع لعدد كبير من سجلات التاريخ •

ومما يسترعى النظر فى المعبد تلك النقوش التى تصـور معركة « قادش » وهى اول معركة فى التاريخ تصور لنا التـوزيع الاستراتيجى للقوات المحاربة على كلا الجانبين • وكيف يكمن الجند وراء التـلال والآكام ثم يباغتون عدوهم ، انها تصور لنا رمسيس وقد أحاطت بهقوات العدو وقطعت عليه طريق الاتصال بقـواته • وبعـد ذلك يجىء دور الجواسيس وكيف القى القبض عليهم وضربوا ضربا موجعا ، ثم وصول الامدادات وانقاذ رمسيس واخيرا النصر • انهـا أول معركة كبيرة بين المصريين وبلاد الشمال ، ترى فيها فرعون فى عجلته الحربية يطـارد الاعداء • ان المعسكر ملىء بالمناظر التى تقدم لك صورة حية عن حيـاة الجندية فى مصر القديمة •

وبعد : فان (ابو سمبل) بما أثاره من تقدير واعجـاب ، ونقد واستنكار ، وخليط من مشاعر الحب والكراهية ، يستحق الثمانية عشر مليون جنيه المصرية التى تتطلبها المحافظة عليه ، وليس هذا المبلغ بالشىء الكثير اذا قسم على مختلف الدول المساهمة فى مشروع انقاذه •

ويعتقد البروفيسور « بيتروجزولا » مدير متحف الفنـون فى «فيرونا» أن المعابد يمكن انقاذها من الفيضان برفع كتلة الصخر التىأقيم فيها المعبد ، ثم تثبيتها على أساس يبنى لهذا الغرض على حافة البحيرة الجديدة التى يكونها ماء السد العالى • كما يعتقد هو وزميله البروفيسور « جوست فوكولونيتى » أنهما يستطيعان رفع ٢٥٠ ألف الطن من الصخر، التى يتكون منها المعبد الكبير ، الى ارتفاع مائتى قدم فوق مستوى أساسه الحالى من غير أن يحدث أى اضطراب فى توازنه ، ويتم الرفع بوساطة ٢٥٠ رافعة تستخدم أجهزة الكترونية لكشف أى خلل فى عملية الرفع• واذا ما تم رفع الصخر بنجاح الى ارتفاع ٢٠٤ أقدام ، يخلصمن القفص الذى يحتويه ، ثم يعد المنظر من حوله بحيث يعود الى مثل حالته السابقة•

ان اقامة رمسيس الثانى لمعبد (ابو سمبل) منـــذ ٣٢٠٠ سنة كان جهدا بشريا يستحق التقدير ، والان فان رفع هذا المعبد ، من غير اصابته بعطب ، عمل سوف يحظى بأعظم تقدير ، انه عمل لامثيل له من قبل •

« ٩ »

فى عام ١٨٧٤ زارت « أميليا ادواردز » معبد (أبو سمبل) ولاحظت وجود بقع على وجه تمثال رمسيس ،لقد كانت مفتونة بالفرعون الشاب ولذلك كلفت طاهيها أن يعد بضع جالونات من القهوة ويصبها فوق وجه التمثال ، وبذلك اختفت البقع البيضاء التى شوهته من قبل • وفى اثناء هذه الرحلة اكتشفت « اميليا » وجماعتها معبد توت الصغير بجانب المعبد الكبير وعليه كتابة ميراطيقية •

وفى عام ١٩٣٣ قدمت المسز « ارشبولد » الامريكية مبلغا من المال لعمل حفائر أخرى بجانب المعبد الكبير فى (ابو سمبل) ونتيجة لذلك تم اكتشاف لوحتين للحاكم « بيزات » نائب الملك فى عهد « رمسيس الثانى » وهو يصلى للاله آمون • وقد أخبرنى لبيب حبشى أن هـــذه البقعة مملوءة بالآثار منذ الاسرة السادسة حتى الأسرة الحادية والعشرين ، وهو يرى أن هذا كان يعتبر مكانا مقدسا منذ أقدم العصور ، ولهذا السبب اختـاره رمسيس الثانى لاقامة معبده الكبير • ولن نضيع وقتنا سدى اذا اسـتطعت جمع البيانات اللازمة عن آثار هذه المنطقة قبل ان تغطيها المياه ، وهناك بعثة من ستراسبورج تعمل بالمنطقة تحت رياسة البروفيسور « جاك ليكلان » كما ان هناك عند قرية « الشيخ داود » بعثة اسبانية تفحص بقايا حصـــن بيزنطى •

ومنذ وفاة رمسيس الثانى لم يشيد بالنوبة بناء هام لفترة تبلغ ألف عام ، ولكن هناك مقابر متفرقة منها مقبرة « بينو » حاكم « واوات » قرب عنيبة ، وهى على مسافة من « معام » التى كانت مقرا لنواب الملك حـــكام النوبة •

واذا انتقلنا الى « توشكى » فاننا نجد مقابر من جميع عصور التاريخ ، وقد قام البروفيسور « بونكر » بالتنقيب عن غالبيتها ونشرها منذ عام ١٩١٢ ومن بين المقابر التى لم تفتح مقبرة « ولد النجومى » الذى مات عام ١٨٨٩ حين كان يقود جيشا لغزو مصر • وهذا يذكرنا بما كتبه « استرابون » من ان الملكة « فندشى » قامت على رأس حملة لمهاجمة « الفيالق الرومانية » فى هذا المكان نفسه منذ الفى سنة •

ان المصريين مشهورون منذ القدم بحبهم لبلدهم ونفورهم من الهجرة الى بلاد أخرى • وقد عثر على رسائل كتبها الموظفون المصريون الذين كان الفراعنة يرسلونهم للعمل فى النوبة ، وهى رسائل يعبرون فيها عن حنينهم للوطن • وأود أن أنقل الى القارىء صورة من هذه الرسائل وقد سطرها « ذوتموس » وكان يشغل منصب كاتب المقبرة حينما أرسلته الحكومة فى طيبة الى بلاد النوبة ليكون فى معية الجنرال « بيانكى » نائب الملك فى « كوش » كتب « ذوتموس » الى ابنه « بوتيهامون » الذى كان هو الآخر كاتبا :

من كاتب القبر ذوتموس الى الكاتب بوتيهامون ، ومرتلة آمون شدمدوا :

اتمنى لكم الحياة الطيبة والرخاء فى ظل آمون رع ، ملك الآلهة ، انى أتضرع الى الآلهة فى كل صباح ليمنحوكم السعادة والحياة والرخاء وأن أعود الى الوطن وأضمكم الى • لقد أرسل رئيسى مركبا لينقلنى فوجدتنى قرب ادفو • والتقيت برئيسى فى الفانتين فأعطانى خبزا وخمرا ودعا لى بخير •

لعلكم تتضرعون الى آمون ، الذى يسيطر على عرش الأرضين أن يعيدنى الى بلدى سالما ، معافى ، وعليكم أن تعتنوا بالاطفال ولا تهملوهم • لاتقلقوا بسببى فأنا فى حال طيبة ، ولكن وجهوا عنايتكم الى الجند ، ولا تدعوهم يفرون ولا يجوعون •

ابلغوا امنحتب أن يتوسل الى آمون والى آلهة مدينة حابو ، كى يعيدونى الى الوطن سالما •

وهكذا تمضى الرسائل بين الوالد فى النوبة وولده فى مصر ، وكلها تدل على تعلق المصرى الشديد بوطنه وحنينه اليه وهو فى غربته .

« ١٠ »

قبل تبادل رسائل الحنين الى الوطن بأحد عشر عاما ، عثر على رسالة أخرى تتصل « بذوتموس » ومصر . وهذه الرسالة محفوظة الآن فى متحف « تورين » وهى من الملك « رمسيس الحادى عشر » الى « بانحس » كاتب الملك فى النوبة يطلب منه فيها احضار احجار . وزهور زرق للصباغة من بلاد النوبة ، وربما كانت هذه الرسالة ايذانا بانتهاء ملك الفراعنة فى مصر ، فبعد عامين نشبت حرب أهلية فى طيبة ، وبدلا من قدوم « بانحس » حاملا الزهور والاحجار جاء بجيش من ابناء النوبة لقمع الثورة فى مصر ، وبعد قليل اصبح « حرحور » نائبا للملك بدلا من « بانحس » ثم تدرج فى السلطة حتى أصبح حاكما فعليا على مصر العليا .

ويقول البعض : ان « حرحور » اصبح ملكا ، ولكن عثر على رسالة كتبها « بانحس » بعد عشر سنوات يقول فيها : ان رمسيس الحادى عشر لا يزال ملكا على مصر ، وان كان ملكا صوريا ، أما الملك الفعلى فهو كاهنه الأكبر « بيانكى » ابن « حرحور » ونذكر ان « بيانكى » هذا هو الجنرال « بيانكى » الذى ذهب « ذوتموس » الى النوبة للعمل تحت رياسته .

وقد ظل هؤلاء الملوك الكهنة يحكمون مصر ١٢٠ عاما كانوا خلالها فى صراع دائم مع الاسرة الحاكمة الليبية التى سيطرت على مصر السفلى ، وقد كانت البلاد حين ذاك فى اضطراب وفوضى . والذى يهمنا هنا ان النوبة استقلت بالفعل ، وفر كثير من كهنة مصر الى النوبة وأخذوا يعملون على تمصيرها .

وما لبثت صفحات التاريخ أن تغيرت فقد حكم الكوشيون مصر . ان اقليم « نباتا » فى أعالى دنقلة كان مقر ملوك « كوش » وليست لدينا معلومات كافية عن نشأة الملكية فى « كوش » وكل ما هنا لك مجموعة من

المقابر عثر عليها فى اقليم « نباتا » وكان من بين الأسماء اسم « بيانسكى » ومن هنا يحتمل أن ملوك « كوش » هم من سلالة القائد المصرى «بيىنكى» الذى كان نائبا للملك فى عهـــــد رمسيس ، واذا ثبت ذلك فكأن ملوك « كوش » من سلالة طيبة •

والمهم لدينا الآن ان « كاشطا » والد « بيانـــكى » كان قد بدأ غزو مصر ، وأن « بيانكى » أصبح أول ملك فى الاسرة الخامسة والعشرين التى يطلق عليها اسم الاسرة الاثيوبية • وقد سطر « بيانكى » أعماله على لوحة عثر عليها فى معبد « آمون » فى جبل « برقل » باقليم « نباتا » عام ٧٣١ قبل الميلاد وتقول اللوحة : ان بيانكى قدم بجيشه الى مصر حيث قاده بنفسه الى « هرموبوليس » فى مصر الوسطى ، واستولى عليهـا فى ثلاثة أيام بعد أن هزم أميرها « النمرود » ، وسار « بيانكى » بعد ذلك شمـالا واستولى على منف ومنـــذ ذلك الحين امتدت مملكة كوش ومصر من « نباتا » الى البحر الابيض ، وكانت عاصمتها فى « نباتا » •

وجاء بعد « بيانكى » « شاب كو » فنقل العاصمة الى طيبة ، وممـــا يؤخذ على هذا الملك أنه ساعد « حوشيا » ملك اسرائيل ضد ملك أشور ، ومن هنا بدأ النزاع الذى أطاح بملك الكوشيين فى مصر •

وفى ذلك العهد كن الاشوريون يستعملون الاسلحة المصـنوعة من الحديد ويضغطون على غربى آسيا ، وكانت قرطاجة زاهرة ، وروما فى دور التأسيس ، والاغريق ينشئون دول المدن فى أماكن متفـــرقة من بلادهم •

ونعود الى ملوك « كوش » فى مصر فنقول : ان ثانى ملك ذا أهمية من الكوشيين تولى عرش مصر هو « طهرافة » وقد توج فى طيبة وتانيس (صان) عام ٦٨٩ قبل الميلاد ، وقد أقام طهراقة لنفسه أربعة تماثيل ضخمة على جبل « برقل » الذى كان مقدسا « لآمون رع » اله الريح ، وربمـــا كان يريد بذلك أن يبز تمثالى رمسيس الثانى فى (أبو سمبل) •

وفى عهد « طهراقة » زحف « آسار حادون » ملك آشور علىمصر

واستولى على منف بعد أن أوقع الهزيمة « بطهراقة » وبعد موت « آسار حادون » عاد طهراقة الى مصر ، ولكن « آشور بانيبال » بن « آسار حادون » وخليفته في الملك غزا طيبة ، وفر « طهراقة » الى كوش ووضع نقوشا زعم فيها أنه هزم الأشوريين والحيثيين وقبائل الصحراء الشرقية، وأخيرا مات « طهراقة » عام ٦٦٣ قبل الميلاد ودفن في هرم في « نباتا » .

وقد رأى خلفه « تانوت آمون » رؤيا فسرها له المفسرون بانه سيعود الى ملك مصر ، وفعلا جهز حملة وسار الى مصر واستولى على طيبة ،ولكن قوات « أشور بانيبال » هزمته شر هزيمة ففر الى نباتا وأقام «أشور بانيبال» « أبسمانيك الاول » ملكا على مصر العليا والسفلى ، ومنذ ذلك التاريخ انتهى حكم الكوشيين لمصر .

وبعد ١٢٠ سنة من انسحاب الكوشيين من مصر نقلوا عاصمتهم الى « مروى » واستعملوا أسلوب الفن المصرى وأبجدية كتبوا بها اللغة المروية .

ويقول « هيرودوت » : ان أمراء مصر تمردوا على « ابسماتيك »، وطردوه الى مستنقعات الدلتا ، وهناك قابلته جماعة من الايونيين الاغريق وساعدوه على استرداد ملكه في مصر واستقر هؤلاء الاغريق عند المصب البيلوزى للنيل ، ثم نقلهم الملك « امازيس » الى منف وجعلهم حرسه الخاص ..

هذه رواية « هيرودوت » ، ولكن « تيودور الصقلى » يقول : ان « ابسماتيك » استرجع ملكه بالمرتزقة من العرب والاغريق وفى حملته على سورية قدمهم على الجنود المصريين ، فغضب هؤلاء وهاجر مائتا ألف منهم الى « اثيوبيا » وتفسر اثيوبيا هذه بأنها المنطقة التى بين جزيرة الفانتين ومروى .

وقد وجد مكتوبا على الساق اليسرى لتمثال رمسيس فى (أبو سمبل) بالاغريقية ما فهم منه لفترة طويلة ان ذلك وصف للطريق الذى اتخذه المهاجرون نحو الجنوب ، ولكن تبين فيما بعد أن هذا يشير الى الحملة

التى أرسلها « ابسماتيك الثانى » فوصلت الى ما بعد « نباتا » عند الشلال الخامس ، وكان ذلك عام ٥٩٠ قبل الميلاد •

وفى حين كانت هذه الحوادث تجرى فى مصر ، كان « صولون » المشرع الاغريقى ،يجرى اصلاحاته الديمقراطية فى أثينا، أما امبراطورية أشور فكانت فى طريقها الى التفكك ، على الرغم من آن « نبوخذ نصر » كان مسيطرا فى ذلك الوقت على أورشليم (بيت المقدس) وقد أخذ اليهود أسرى الى بابل وهذا هو المعروف فى التاريخ « بالأسر البابلى » •

وبينما كان أبناء هؤلاء المهاجرين الى الجنوب يتعلمون فلاحة أرضهم الجديدة ، اذ ظهر زعيم آسيوى جديد ، فاستولى على بابل وخلص اليهود من الاسر ، واسم هـذا الزعيم « قورش » ، أما فى الهنـد فان الامير « جوتاما » أصبح يطلق عليه لقب « بوذا » وظل غارقا فى تأملاته بعيـدا عما يجرى حوله ، وفى الصين ظهر المعلم الاكبر « كنفوشيوس » وأخـذ يجوب البلاد هو وتلاميذه •

ويقول « هيرودوت » : ان « قمبيز » ابن « قورش » غزا مصر عام ٥٢٥ قبل الميلاد وقبض على « ابسماتيك الثالث » ملك مصر وأعدمه ، وقد حاول قمبيز غزو بلاد « كوش » ولكن جيشه لم يتقدم خطوة واحدة بعد « ابريم » ، وقد عثر فى الصحراء على كثيرمن الحراب والسهام والخوذات التى خلفها جيش « قمبيز » التائه •

ويقول « جان دى فيكيو » فى يومياته : ان جنـود الفرس ، الذين غزا بهم « قمبيز » مصر دمروا مدينة أسوان ، وعبروا النهر وقاموا بالسلب والنهب فى « فيلة » ، ومهما يكن من أمر فان السـنوات المائة والخمس والتسعين ، التى مرت منذ احتلال الفرس لمصر حتى قدوم الاسكندر ،لم تترك أى أثر فى بلاد النوبة ،أما خارج النوبة فقد توالت الاحداث ،فكانت هناك معركة « مارتون » التى انتصر فيها الاغريق على الفرس ، وحيـاة « سقراط » وموته وعصر « بركليس » الزاهر ، وقدوم « هيرودوت » الى مصر •

ويبدو أن البطالمة الذين حكموا مصربعد الاسكندر قد لقوا ترحيبا من المصريين ، اذ أنهمخلصوهم منحكم الفرس ، وقداندمج البطالمة فيالحياة المصرية ، واحترموا الآلهة المصرية ، وبنوا المعابد ومن بينها معبد «فيلة» وكانت حدود مصر الجنوبية عند النوبة السفلى ، ولكن البطالمة دفعوا بها جنوبا حتى الشلال الثانى ، غير أن امتداد الحدود المصرية الى الجنوب تم بطريق سلمى ، وفى عهد « بطليموس الرابع » استطاع « آرك آمون » ملك « مروى » أن يمد حدوده شمالا ويبنى معبد « دبور » قرب أسوان وذلك فى نحو عام ٢١٠ قبل الميلاد .

وكذلك بنى « آرك آمون » ملك مروى معبد « دكة » قرب «ايكور» وهى من مدن الأسرة الثانية عشرة ، ويقول « تيودور الصقلى » : ان « آرك آمون » تلقى تعليما اغريقيا فى بلاط « بطليموس » فى الاسكندرية .

وقد اتخذت الاجراءات اللازمة لانقاذ جميع آثار البطالمة فى النوبة، وعلى الرغم من أن هذه الآثار لا تجارى ما خلفته الاسرة الثامنة عشرة ، فان لها قيمة تاريخية كبيرة ، لانها تتمشى مع تطور الحوادث فى ذلك الزمن ، وتقدم لنا صورة واضحة عما يجرى حين ذاك ، ففى هذه الفترة ظهر « ارشميدس » صاحب قانون الاجسام الطافية ، و « هانيبال » وتدمير قرطاجة ، واحراق مكتبة الاسكندرية ، وانطونيو وكليو باترا .

ومما يبدو بعيدا عن التصديق أن كليوباترا قامت برحلة نيلية الى الجنوب وزارت « بيت الوالى » فى اقليم النوبة ، والراجح أن كليوباترا لم تجل فى أنحاء مصر ، بل نستطيع القول بأنها لم تر (أبو الهول) .

ان قصة الحب الخالدة بين « انطونيو » و « كليوباترا » لم يكن لها أى صدى فى النوبة ، وبعد موقعة « اكتيوم » وانتحار الحبيبين أصبحت مصر ، ومعها النوبة ، ولاية رومانية .

وحين استولى الرومان على النوبة وجدوا أمامهم مملكة قوية فى الجنوب هى مملكة « كوش » وعاصمتها « مروى » وكان ذلك سنة ٢٩ قبل الميلاد ، وقد أثبت « كورنيليوس جالوس » حاكم مصر الرومانى أنه

عقد اتفاقية مع الكوشيين على أن يكون الشلال الثانى هـــو حد مصر الجنوبى ، وفى هذه الفترة قام الجغرافى الاغريقى « سترابون » بزيارة الجنوب وقضى وقتا سعيدا مع ايليوس جالوس الحاكم الجديد ، وبعـــد عامين من زيارة سترابون للجنوب نقض الكوشيون شروط المعاهدة .

ويروى لنا « سترابون » قصة الاثيوبيين (الكوشيين) مع الرومان فيقول : انهم هاجموا مصر حينما كان حاكمها « ايلياس جالوس » يحارب العرب ، وبسط هؤلاء الكوشيون نفوذهم حتى سينى (أسوان) ثم استولوا على « الفانتين » و « فيلة » وهدموا تمثال قيصر ، ولكن القائد «بترونيوس» هاجمهم وردهم حتى « دكة » ، وكان بين الكوشيين الملكة « قندش » وقد ظل « بترونيوس » يطـــارد الكوشيين الفارين حتى هزمهم فى « ابريم » وبلغ « نباتا » ، ولما عادت الملكة « قندش » لمهاجمة القوات الرومانية هزم « بترونيوس » جيوش الكوشيين شر هزيمة ، ثم جاءه السفراء يطلبون الصلح ، ولكنه أحالهم الى « أوغسطوس » قيصر ، وذهب رسل الكوشيين الى جزيرة « ساموس » حيث كان قيصر مرابطا فيها ، وهنـــاك التقوا به فوعدهم برد كل ممتلكاتهم اليهم .

وعلى ذكر الملكة « قندش » نقول : انها فى الحقيقة شخصية تاريخية تستحق الوقوف عندها ،ولنذكر أولا أن « قندش » ليس اسم الملكة ،ولكنه لقبها مثل كلمة « فرعون » لقب ملوك مصر ، وهذه الملكة كانت تقيم فى « نباتا » وهى مستقلة عن مملكة « مروى » ويظن أنها آخر ملوك «نباتا» وأن الهرم الذى وضـــع عليه « ريزنر » علامة (×) هو مقبرتها ، ويبدو أنه لم تقم لها ولا « لنباتا » قائمة بعد حملة « بترونيوس » .

وقد ظل السلام يسود النوبة طوال مائتى عام ، ثم أغار عليها بدو من الصحراء الشرقية يطلق عليهم اسم « البلمى » واحتلوها ، وكان هؤلاء القوم على شىء من الحضارة التى نقلوها عن ملوك « مروى » وسـلالتهم اليوم هم قبائل « البشارية » و « العبابدة » وقد أقام الرومان عدة معابد فى النوبة منها معبد كلابشة ، الذى شيد فى عهد « أوغسطوس » قيصر ، وقد اعتبره « ما سبيرو » أجل معابد النوبة .

وبعد الكارثة التى أصيبت بها الملكة « قندش » بأربعة وعشرين عاما ولد المسيح ، وبعد ميلاد المسيح بأربعة وخمسين عاما أرسل الامبراطور الرومانى « نيرون » حملة على مملكة « مروى » وسارت هذه الحملة فى النيل حتى بلغت اقليم السد ، ولم يحاول الرومان السير عن طريق النيل فى منطقة الشلالات ، وفضلوا عليه الطريق البرى الى « دارفور » مارا بالواحات الداخلة وعلى طول الطريق شيدوا المعابد الجديدة وأصلحوا القديمة .

وفى نحو عام ٣٠٠ ميلادية استطاع « البلمى » وهم سكان الصحراء الشرقية ، أن يحتلوا المنطقة التى عند باب كلابشة .

(١١)

فى ٣ من نوفمبر عام ١٩٣١ ، وفى آخر موسم التنقيب ، الذى أجرى قبل التعلية الثانية لخزان أسوان ، شاهد البروفيسور « ايمرى » ورجاله مساحة واسعة مغطاة بالتلال على مسافة من (أبو سمبل) فى « بلانة » و « قسطل » ، وكان « بيركارت » قد زار المنطقة عام ١٨١٣ وظنها أكواما رملية طبيعية ، وقد أجرى « ايمرى » بعض الحفائر فى المنطقتين وثبت له أن بهما مقابر أثرية لشخصيات هامة ، وبمواصلة الحفر وجدوا عظام ملوك وتيجانهم .

وقد قام البروفيسور « ايمرى » باجراء حفائر أخرى فى « ابريم » واستقر رأيه أخيرا على أن ما اكتشفه من مقابر لعنصر عاش فى المنطقة بين القرنين الثالث والسادس المسيحى ، وانهم سدوا الثغرة بين عهد ملوك « مروى » والعصر المسيحى ، ويرجح « ايمرى » أن هذا العنصر من « البلمى » سكان الصحراء الشرقية ، ويقول « ايمرى » : ان البلمى أنشئوا مملكة مستقلة فى هذه المنطقة وذلك فى نحو سنة ٣٠٠ ميلادية ، وأن الاكوام التى شاهدها ليست الا مقابر ملوكهم ، وهؤلاء القوم كانوا وثنيين يعبدون آلهة « مروى » وآلهة مصر القديمة ، وكانوا يقدمون قربانهم من الحيوانات والآدميين ، ولم تكن لهم لغة مكتوبة .

ولما انتشرت العقيدة المسيحية عارضها العالم القديم ، وكان من أشد المعارضين لها فى مصر «ماكسيمينوس» الذى اضطهد المسيحيين ،فهاجروا الى النوبة ، وكانوا موضع توقير واجلال من الاهالى حتى لقد أطلقوا عليهم اسم « آباء الصحراء » .

وفى عام ٣١٣ ميلادية أعلن الامبراطور « قسطنطين » أن المسيحية هى الدين الرسمى للامبراطورية الرومانية ، وذلك بمرسوم « ميلان » الشهير ، وبعد تسعة وأربعين عاما أصدر الامبراطور ثيودوسيوس مرسوما بأن تصبح مصر والنوبة رسميا مسيحيتين ، ولكن الآلهة القديمة لم تختف بسهولة ، ونحن نعلم ان « البلمى » ظلوا متمسكين بعقائدهم القديمة حتى القرن السادس .

وفى ذلك الحين ضعفت مملكة الكوشيين وصارت نهبا « لاكسيوم » امبراطور أثيوبيا ، وقسمت « كوش » الى ثلاث ممالك ، وهى مملكة « نباطيا » من الشلال الاول الى الشلال الثالث و « ماقوريا » الى جنوب « مروى » وعاصمتها دنقلة العجوز ، والثالثة مملكة « علوه » وعاصمتها « سوبا » قرب موقع الخرطوم الحالية .

ولقد زعم أحد الملوك واسمه «سيلكو» انه ملك النباطيين والكوشيين، وسجل ذلك بالاغريقية على معبد كلابشة ، وفى عهد الملك « سيلكو » وذلك فى نحو سنة ٥٣٠ ميلادية كان كل شمال شرقى افريقية مسيحيامن البحر الابيض الى أثيوبيا ، وفى فترة مائة العام ما بين حكم سيلكو والفتح العربى للنوبة أقيم كثير من الكنائس كما تحول عدد كبير من المعابد الى كنائس .

وفيما بين عامى ٦٥٠ ، ٧١٠ ميلادية اتحدت مملكتا نباطيا وماقوريا المسيحيتان وكونتا مملكة واحدة عاصمتها دنقلة العجوز وظلت نباطيا تحتفظ بشخصيتها فى ظل زعيمها « ايباشى » الذى أطلق عليه العرب اسم « شيخ الحيل » ويقول « آركل » : ان النباطيين قد يكونون فرعا من المرويين ، وأنهم أوجدوا ممالك عبر الصحراء تمتد غربا حتى شمالى

نيجيريا ، كما أنهم على الرغم من الفتح العربى ظلوا يستعملون اللغـــة الاغريقية فى الشئون الكنسية ، وعلى المقابر حتى عام ١١٨١ ميلادية ، وفى عام ٥٧٧ ميلادية حول الاسقف « تيودور » جانبا من معبـد « فيلة » الى كنيسة ، وبينما كان « تيودور » ينشر البخور المقدس اذ ظهر الاسـلام ، وبعد قليل اكتسح البلاد فأوقف « تيودور » نشاطه وأطفأ مباخره : ففى عام ٦٤١ غزا عمرو بن العاص مصر ، وأصبحت النوبة جـــزءا من الخلافة الاسلامية ، وبعد احدى عشرة سنة حدث تمرد فى النوبة فذهبت اليهـا حملة سارت جنوبا حتى دنقلة العجوز فدمرتها ، وطلب ملكها « قلدس » الصلح فعقد العرب معه الصلح •

هذا والمعاهدة التى عقدها عمرو مع الملك « قلدس » تثبت عـــدالة المسلمين وتسامحهم الدينى مع المسيحية ، وفيما يلى جانب من نص هذه المعاهدة •

« يأهل النوبة : سوف تعيشون فى أمان فى ظل العنـــاية الالهية ورعاية الرسول محمد ، وللرعايا من كلا الطرفين حق عبور الحدود ، على ألا يكون قصدهم الاقامة ، وعلى الجانب الذى يعبرون لديه واجب حمايتهم، وعلى النوبيين أن يحافظوا على المسجد الذى بنى فى مدينتهم وليس عليهـم أن يعتنقوا الاسلام مرغمين •

« واذا انتهكتم شروط المعاهدة فسوف نعود الى العدوان حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين » •

وقد اقسم المسلمون على المحافظة على شروط المعاهدة باســم الله ورسوله وطلبوا من النوبيين أن يقسموا بكل ما يعتبرونه لديهم مقدسـا وبالمسيح وبحوارييه •

ان الصورة الشائعة عن العرب فى بلاد الغرب صورة مشوهةتحمل معنى القسوة والعنف والظلم والوحشية ، ولكن هؤلاء الغرب كانوا حفظة الحضارة فى خلال العصور الوسطى ووقت أن كانت المسيحية فى باكورة عهدها فى النوبة •

ويقول العلامة « فلندرز بترى » : ان العرب أقاموا فى اســـبانيا حضارة من أعظم الحضارات الانســانية ، وان تجاهل هذه الحقيقة يعتبر تجاهلا لأنصع صفحات العصور الوسطى •

هكذا لم يكن الفاتحون العرب أعداء للمسيحية فى النوبة الأ عند الضرورة حين يتمرد عليهم الاهالى ، ولما كانت ديانتهم تقوم على أسس من الصلاح والبر ، فقد كانوا يحيطون المسيحى المخلص لدينه بالعطف والتسامح .

ويروى لنا المؤرخ العربى « أبو صالح » القضية التالية : فى عهد الخليفة المستنصر بالله نزل سليمان ملك النــــوبة المسيحى عن عرشه ، وعكف على العبادة فى كنيسة « الوادى » عـــلى مسيرة عشرة أيام من أسوان ، ولما علم وزير مصر بذلك نقله الى القاهرة حيث استقبل بالتجلة والتكريم ، واختيرت له دار خاصة ، وأخذ الوزير يتردد عليه لزيارته والاطمئنان على صحته ، وبعد عام مات الملك ســـليمان ، ودفن فى دير القديس جورج .

ويروى قصة أخرى عن الملك « زخاريا » ملك النوبة الذى تأخر فترة طويلة عن دفع الجزية فى عهد الخليفة المأمون،ولما عجز « زخاريا » عن الدفع أرسل ابنه جورج الى بغداد ، ولما علم الخليفـــة المأمون بقصته تأثر تأثرا عميقا ، وأعاد جورج الى مصر ومعه هبات قيمة الى الملـــك « زخاريا » وكذلك أمر بان يخصص للامير جورج قصر من قصـــور حاكم مصر .

ويبدو لى أن الحياة فى النوبة فى عهد الملك زخاريا والامير جورج تشبه الحياة فى انجلترا فى عهد ملوك الساكسون ، فهنـــاك الملك ومن حوله الرهبان ورجال الاكليروس والحياة كلها تدور حول الكنيسة .

لقد ظلت السكينة والهدوء تسودان بلاد النوبة طوال العهد البطلمى والعهد المسيحى وصدر العهد الاسلامى ، وذلك باستثناء فترات متقطعة، ولكن فى عام ١١٧١ ميلادية انتهى حكم الفاطميين فى مصر وتـــولى السلطة بدلا منهم صلاح الدين الأيوبى ، وكان النوبيون يجهلون ما جبل علبه هذا الحاكم الجديد من بأس وقوة ، ولذلك أغاروا عـــلى أسوان وبدءوا فى احتلال مصر العليا ، ولكن « صلاح » أرسل اليهم حملة تحت

قيادة « شمس الدولة » فأدبهم وأسر منهم خلقا كثيرين ، وفى عام ١٢٧٢ أغار النوبيون تحت قيادة الملك « داود » على مدينة عربية على البحر الاحمر ، فأرسلت حملة من مصر لتأديبهم ، وقد أسر الجند المصريون الملك « داود » ومات فى أسره .

وفى هذه السلسلة من الاضطرابات والغرات ظلت النوبة معطله من الآثار التاريخية .

وفى عام ١٥١٧ ميلادية استولى الاتراك العثمانيون على مصر فى عهد السلطان سليم الاول ، ومنذ ذلك الوقت ظل النوبيون ، كاخوانهم المصريين ، يستغلون بلا رحمة على أيدى حكامهم الاتراك ، ولقد نصب سليم حكاما على النوبة فبنوا الحصون فى أسوان وابريم وغيرها من الاماكن وأقاموا فيها حاميات من « البشناق » . ويقال : ان حامية «ابريم» ذهبت فى زوايا النسيان ، فاندمجت فى البيئة المحيطة بها ، وقد علق على ذلك « سانت جون » حين زار المنطقة عام ١٨٣٨ فقال : انه لاحظ أن بعض أهالى الدر ، شقر ، ولعل هؤلاء من سلالة البشناق ، وكذلك شاهدت « اميليا ادواردز » عام ١٨٧٧ نساء فى « ابريم » ذوات شعر أحمر مموج وعيون زرق .

وفى عام ١٧٩٨ غزا نابليون مصر ، ثم جاء عهد محمد على وأسرته، ولكن هذا لم يغير شيئا من حياة النوبيين الفقراء .

وفى عام ١٨١٢ أرسل محمد على حملة الى السودان فمرت بالنوبة وتركتها كالهشيم ، كذلك كانت هناك معركة بين محمد على والمماليك فى « ابريم » ولعل المنقبين يكشفون لنا عن أسرارها .

وفى أواخر القرن الماضى كانت بلاد النوبة ميدانا للمعارك بين الدراويش وبين القوات المصرية والبريطانية ، أما الآن ـ ونحن نختتم حديثنا عن النوبة وأهلها ـ فاننى أود أن أصحح تلكالصورة التى انطبعت فى بعض الاذهان عن النوبة بأنها « بلاد العبيد السود » وهذا خطأ تاريخى

فاحش ، فأهل النوبة ليسوا سودا ، بل هم من الجنس الأسمر ، وهم كذلك لم يكونوا عبيدا في يوم من الايام .

واذا كانت النوبة قد القيت في زوايا النسيان ردحا من الزمن ، فان السد العالى ومياهه قد أيقظت الاثريين من سباتهم العميق ، وهب العالم المتمدين بأسره يوجه أكبر اهتمام للنوبة ويطالب بانقاذ آثارها ،أو تسجيلها ان لم يكن هناك سبيل الى الانقاذ .

لقد كانت النوبة هى الطريق الملكى الى افريقية حينما كان انسان العصر الحجرى يأوى الى الغابات فى أوربا ، وكان فى النوبة سلسلة من الحصون والمراكز التجارية حين ظهرت الجماعات البدائية فى جنوب غربى اوربا ، وحين كان سليمان يبنى المعبد للرب فى أورشليم ، كان النوبيون قد بلغوا مستوى حضاريا رفيعا ، وفى حين كانت روما فى طريق التأسيس كان النوبيون يغزون مصر ويفرضون سيطرتهم عليها ، ولقد ظلت أسرات مالكة نوبية تحكم فى « نباتا » و « مروى » طوال ألف عام ظهر فيها « بركليس » و « سقراط » و « بوذا » و « كونفوشيوس » و « المسيح » .

وهكذا سوف تظل النوبة خالدة فى سجلات التاريخ ، ذلك لانها جزء من التراث الانسانى على هذا الكوكب الذى لا يدرك كنهه .

ان ماتوارد على الجنس البشرى من خير وشر ، ونعيم وبؤس ، ورخاء وشدة ، قد انعكست صورته على النوبة ، بل كان للنوبة منه نصيب كبير .

فهرس



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون { ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤



الدار القومية للطباعة والنشر
١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج
تليفون ٤٠٧٥٣ / ٤٢٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤

العدد ٤٦ الثمن ١٥ قرش

